التنــوّع والتعـايـش

بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الرابعة
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

حسن موسى الصفار

التنــوّع والتعـايش

بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبينا

محمد وآله الطاهرين وصحبه الطيبين

قال الإمام محمد الباقر بن علي بن
الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام:
«صلاح شأن الناس التعايش»

تقديم

بقلم الدكتور الشيخ محمد عبده يماني

هـذا كتـاب أقدّمه بين يـدي القـارئ الكريم، وقـد تفضل أخي الشـيخ حسـن الصفار، فطلب مني أن أضع له مقدمة، والكتاب عن قضيـة التنوع والتعايش، وهو موضوع هام، خاصة أنه يعنى بالدعوة إلـى الحـوار والتفكيـر والتعايـش، ويطرحهـا في إطـار موضوعي ومنطقي، يجعلك تشـعر وأنت تقـرأ الكتاب، بـأنّ المؤلف قد بذل جهـدًا موفقًا، ووضع فيـه عصارة فكره، وزبدة مـن تجاربه، وجمع فيه ألوانًا من المعرفة، ثم صاغ ذلك بأسلوب راقٍ، وتسلسل بديع.

وهـو كتـاب في موضوعه جدّة، وفي عرضه سلاسـة، يشـعرك وكأنـك كنـت تفكـر بنفـس طريقـة المؤلـف، ويأخذك فـي عرض جميـل، يسـتعرض خلاله نمـاذج من القضايـا الهامة التـي يطرحها الكتاب، ويجعلك وكأنك تقرأ أفكارك فيه.

وموضوع الكتاب هام جدًّا، فالتنوع ظاهرة كونية في آفاق السماء، وفي جنبات الأرض وفي الحضارات المتعاقبة على مرّ الزمان وفي كلّ أنحاء المعمورة، في البشر والمخلوقات حية وجامدة، ثم ناحية التعايش ضرورة لازمة لاستمرار الحياة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[سورة النحل، آية: ٩٣].. غير أنّ حكمة الله في التنوع ليكون في التعايش طعم متجدد لهذا التنوع.

وهناك نقطة مهمة، وهي أنّ الكتاب مركّز مكثّف، لدرجة أنّ كلّ فصل يصلح كتابًا مستقلًا بذاته، مثل ظاهرة التنوع اللغوي، والعرقي والقومي، والتمايز الفردي، كلّها موضوعات تستحق الإفراد بالاهتمام والدراسة.

وقد استطاع الكاتب ببراعة، أن يرتب هذه الأبحاث، ويلمّ شتاتها مستعينًا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية في بحثه، مثيرًا للاهتمام، مشوقًا للمتابعة، ولقد أعجبتني نظرة الكاتب الأستاذ حسن الصفار إلى واقع الأمة اليوم، وذلك التنافر والاحتراب الداخلي، الذي يعيق محاولات النهضة، ثم تركيزه على القلق والشك اللذين يربكان المسيرة، وتلك الأفكار التي تشغلنا بمعارك داخلية، جعلت أعداء الأمة يستفيدون منها.

ومن يقرأ كتاب الشيخ حسن الصفار، يحس بذلك الإسهام الذي يرمي إليه، في قضية التعايش من أجل مسيرة هذه الأمة.

وفي قضية التنوع العرقي والقومي، سرّني التركيز على النظرة الإسلامية نحو خلق الناس، وأنّهم من نفس واحدة، واستشهاده بالآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[سورة النساء، آية: ١].

ثم طرح الموضوع على بساط البحث، وانطلق إلى التنوع اللغوي، ثم الديني، وأهمية ألّا يؤدي أيّ اختلاف منها إلى تصادم وصراع، بل إلى تعايش وانسجام واحترام متبادل.

ثم في الفصل الثاني يناقش الكاتب بموضوعية كبيرة قضية الاختلاف في الرؤية الإسلامية، ويستفيد مرة أخرى من الآية التي تؤكد على اختلاف الألسنة والألوان ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

وقضية أخرى هامة، وهي مشروعية التنوع وصلته بالتعارف، ثم إنّ قضية التنافس في أيّ من المجالات، لا بُدّ أن يكون تنافسًا إيجابيًّا، وموضوعيًّا، يتفق مع التوجيهات الربانية، وتعاليم المصطفى ﷺ وآل بيته الطاهرين، وصحابته الكرام البررة؛ لأنّ التنافس كلّما كان إيجابيًّا، جعل الإنسانية ككل في أمانٍ من الصراع والنزاع، الذي يكلّف البشرية الكثير من الضحايا والخسائر.

وهنا يؤكد الكاتب على ما جاء في سورة المائدة، بأنّ الله سبحانه وتعالى، جعل لكلّ أمة شرعة ومنهاجًا، ولو شاء لجعل الناس كلّهم أمة واحدة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

وركز على أنّ الاختلاف فطري، ومفيد للحياة، ما لم يتحول إلى نزاعات وعداوات، وهنا يركز على أنّ التنافس الإيجابي، والتسابق نحو الإنجازات الخيرة، هو البديل عن الجدل العقيم والصراع.. ويستفيد من الآية الكريمة في سورة الحج ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[سورة الحج، آية: ٦٧].

ثم يسمو بعقلاء الناس الذين ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [سورة القصص، آية: ٥٥].

والكتاب في فصله الثالث، يركز على التعايش، ومنهج التطبيق، ويستفيد من السيرة النبوية، وأفعال المصطفى ﷺ.

وختامًا، فالكتاب في رأيي بمجمله يطرح قضايا مهمة، ومعالجات موضوعية، ويضع في النهاية تساؤلات مهمة، عن التعايش الحضاري، والتسامي الخلقي، وأهمية الحوار، ودور رجال الفكر، وأن يتحمل الجميع مسؤوليتهم، في قضية صنع

وحدة الأمة الإسلامية، وبعدها عن التنازع والصدام، ويختم بالآية الكريمة ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[سورة الأنفال، آية: ٤٦].

وقد سرّني أن أقدّم لهذا الكتاب؛ لأنّ المؤلف رجلٌ من علماء المذهب الشيعي، الذين عرفوا بالاعتدال والموضوعية، وممن عرفنا فيهم الحرص على الحوار الهادف، في معالجة القضايا الأساسية، وخاصة محبة الله عزّ وجلّ، ومحبة رسوله ﷺ وآل بيته وصحابته الكرام، واحترامهم وتوقيرهم جميعًا، كما أمرنا الله عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وكما علمنا رسول الله ﷺ الذي قال: (الله الله في أصحابي، لو أنفق أحدكم مثل أحُدٍ ذهبًا ما بلغ من أحدهم ولا نصيفه) ثم في تقدير أمهات المؤمنين جميعًا (رضي الله عنهنّ) وفي مقدمتهم السيدة خديجة بنت خويلد، هذه السيدة التي لها في رقاب المسلمين جميعاً مِنَّة وفضل، بما صدقت به المصطفى ووقفت معه وآزرته، وابنتها الزهراء البتول وجميع بناتها (رضي الله عنهنّ) وأرضاهن، وكذلك بقية أمهات المؤمنين، والسيدة عائشة، التي نقلت لنا بأمانة، أحاديث عن فضل السيدة فاطمة، لم يروها أحد غيرها، بأنّها رضي الله عنها سيدة نساء أهل الجنة.. كما نقلت لنا أخبار السيدة فاطمة رضي الله عنها، وإنّها أحبّ إنسانة إلى رسول الله ﷺ وكذلك

سيّدنا علي كرّم الله وجهه.

ولا شك أنّ الكتاب فيه كثير من الجهد، والمعالجات الواعية، وهو كتاب يستحق أن يقرأ، فهو يطرح موضوعات جادة.. ويدعو إلى التفكير.. والحوار.

وفي الختام، فإنني أعتبر الكتاب إضافة طيبة للمكتبة العربية، وأسأل الله أن ينفع به، والله من وراء القصد وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

محمد عبده يماني

مقدمة

إنّ فجـوة كبيرة هائلة تفصل بين الدول النامية والدول المتقدمة في العالم، وعنصر الزمن والوقت يلعب دورًا سـلبيًّا في تعميق هذه الفجـوة، فسـنة بعد أخرى تـزداد الـدول المتقدمة غنًـى بينما تزداد الدول المتخلفة فقرًا.

ففـي الـدول الناميـة يعيش أكثـر من ثلاثـة أرباع العالـم لكنهم يحصلـون علـى ١٦٪ فقط مـن دخل العالم بينمـا يحصل ٢٠٪ هم سكان الدول المتقدمة على ٨٥٪ من الدخل العالمي، وحتى الدول النفطية الثرية في العالم الثالث يختلّ فيها الآن التعادل والتوازن بين نموها السـكاني وناتجها المحلي، فدول مجلس التعاون الخليجي كان نمـو السـكان فيها بيـن عامي ١٩٩٠م و ١٩٩٥م قـد ارتفع إلى ٢٣٪ بينما زيادة الناتج المحلي لم تتجاوز ١٩٪.

وإسـرائيل التي تنتمي جغرافيًّا إلـى العالم الثالث، حيث غرس كيانهـا العدوانـي في قلـب المنطقة العربيـة، بينما هي فـي الحقيقة

امتـداد للقـوى الكبرى المتقدمـة، يمثل التفاوت بينهـا وبين الدول العربيـة المجـاورة لها، مثـالًا صارخًا لهذه الحقيقـة المؤلمة، فعدد سـكان إسرائيل يقدر بـ٤ , ٥ مليون نسـمة، بينما دخلها القومي عام ١٩٩٤م وصـل إلـى ١ , ٧٨ بليـون دولار، وفـي المقابل فـإنّ عدد سـكان مصر والأردن وسـورية ولبنـان والمناطق الفلسـطينية، يبلغ ٨٣ مليون نسمة، لكن دخل جميع هذه الدول، لا يصل إلى مستوى دخل إسرائيل، وهي دول ومجتمعات عريقة في هذه المنطقة، بينما زرعت دولة إسرائيل واصطنعت خلال الخمسين سنة الماضية.

وتندفع الدول النامية لمواجهة هذا الاختلال بالمزيد من الديون والقـروض التـي تثقل كاهلهـا وترهن مسـتقبلها بـإرادة المقرضين والدائنين.

فقـد جاء فـي تقريـر البنـك الدولـي (ديـون العالـم ١٩٩٣م/ ١٩٩٤م) أنّ قيمـة الديـون المتوجبـة علـى الـدول العربيـة فقـط، ارتفعـت إلى ١٨٩ بليون دولار نهاية عـام ١٩٩٢م. وأنّ خدمة هذه الديون، ارتفعت إلى أكثر من ٧ , ١٧ بليون دولار.

ويكفـي أن نعلـم أنّ دولة عربيـة واحدة هي مصـر، تبلغ ديونها الخارجيـة ١٨ , ٣١ مليـار دولار، ويتوقـع وزيـر الدولـة المصري يوسـف بطرس غالـي، أنّ تنتهي هذه الديون عـام ٢٠٤٣م، أي بعد خمسين سنة!!

أمـا ما تعانيه شـعوب هـذه الـدول النامية، من مشـاكل حياتية، في مجـالات التعليـم والصحة والعمـل وتوفير مسـتلزمات الحياة الكريمة، فحدّث عن تلك المعاناة ولا حرج.

جـاء في تقرير صادر عـن معهد بحوث الأمـم المتحدة للتنمية الاجتماعية (UNRISD) في كانون الثاني ١٩٩٥م أنه:

- يعيش ثلث السـكان في الأقطار الناميـة تقريبًا في حالة من الفقر المطلق.
- يعيق سـوء التغذية النمـو البدني والعقلـي لطفل واحد من كلّ ثلاثة أطفال في الأقطار النامية.
- مـا يقـارب مـن ١,٣ بليـون إنسـان فـي الأقطـار الناميـة محرومون حتى من الحدّ الأدنى المناسب من مياه الشرب.
- فـي سـنة ١٩٩٢ مـات ٦ ملاييـن طفل دون سـن الخمس سنوات من العمر من مرض ذات الرئة أو الإسهال.
- تقـدر منظمة العمل الدوليـة (ILO) أنّ حوالي ١٠٠ مليون طفل دون سـنّ الخامسة عشرة يعملون الآن ويحرمون من الدراسـة، تحـت ضغط الحاجـة، ٩٥٪ منهم مـن الأقطار النامية، ونصف هؤلاء في آسـيا، لكن أعلى نسـبة للأطفال العاملين، واحد من ثلاثة موجودة في أفريقيا.

فمتى وكيف تسـتطيع هذه المجتمعات تحسين واقعها وتجاوز

هذه الحالة المأساوية؟

***

إنّ أول خطـوة تضعنا علـى طريق التنمية والتقـدم، هي امتلاك إرادة التعايش والقدرة على تحقيقه.

فإذا ما اعترفنا ببعضنا بعضًا، واحترم كلّ واحدٍ منّا الآخر، وأقرّ بشـراكته ودوره، حينئـذٍ يمكننـا العمل معًـا لتجاوز حالـة التخلف العميق والانطلاق نحو أفق الحضـارة الواسع.

إنّ المسـافة بيننا وبين ركـب الحضارة والتقدم بعيدة شاسـعة، ونحتـاج إلى بذل أقصى الجهود، وتفعيـل كلّ الطاقات والقدرات، حتى نقطع شوطًا من ذلك الطريق الطويل.

والتنميـة تحـدٍّ صـارخ، حتـى للأقطـار التـي تنعـم بالسـلام والاستقرار، كما أنّ هناك سباقًا عالميًّا محمومًا بين الدول الصناعية والمتقدمة نفسها، كما هو واضح اليوم بين أمريكا واليابان.

إننا لو تحركنا ومشـينا بنفس السـرعة التي يمشي بها الآخرون، لمـا اسـتطعنا اللحاق بهم؛ لوجود مسـافة كبيرة فاصلـة، فمن يقطع أمامك ألف كيلو متر ويسـير بسـرعة ١٢٠كم في الساعة، لن تدركه أبدًا إذا مشيت أنت بنفس السرعة، بل لا بُدّ لك من مضاعفة السرعة، لعلك تعوّض ما فاتك من المسافة التي قطعها أمامك.

بَيْـدَ أنّ واقـع التنافـر والاحتـراب الداخلـي يعـوّق أيّ محاولة

للنهوض والإقلاع، فشعوبنا كسائر المجتمعات البشرية، تتنوع ضمنها الاتجاهات، وتتعدد الانتماءات، دينيًّا وقوميًّا وسياسيًّا، لكنّ مشكلتنا أنّ كلّ اتجاه أو انتماء يعيش القلق من الآخرين في محيطه، حيث تسود أجواءنا حالة من الشك والارتياب، تجاه بعضنا بعضًا، مما يدفع كلّ طرف للحذر من الآخر، والاستعداد لمواجهته، والعمل على إضعافه، مما يحول بيننا وبين التعاون الجاد المخلص، بل ويوجه طاقاتنا نحو الهدم بدل البناء.

إنّ أذهاننا وأفكارنا مشغولة بمعاركنا الداخلية، وإنّ الجزء الأكبر من إمكاناتنا تستنزفه تلك المعارك.

ومن الطبيعي أن يستفيد أعداؤنا من هذا الواقع السيئ، وأن يشجعوا حالة التمزق والتشرذم في مجتمعاتنا، لتستمر في الخضوع لهيمنتهم، وليأمنوا خروج المارد الإسلامي من قمقمه.

إنّ القوى المسيطرة في العالم، لا تريد لنا السير على طريق التنمية والتقدم، لتحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي، بل تريدنا محتاجين لها دائرين في عجلة اقتصادها.

فمتى سنتجه لمعركتنا الحقيقية، في ميدان التنمية، ما دمنا منشغلين بمعارك خلافاتنا المزمنة والزائفة؟

ومتى سنتصدّى لأعدائنا الواقعيين، ما دمنا مستغرقين في العداوات الداخلية الوهمية؟

وكمثال على هذا الواقع الأليم: يكفي أن نعلم أنّ عدد الذين استشهدوا في كلّ حروب العرب مع إسرائيل يقدر بحوالي (١٥٠,٠٠٠) إنسان، بينما يقدّر عدد الذين قتلوا في الحروب الأهلية، في ثلاثة أقطار عربية، هي العراق ولبنان والسودان، يقدر بحوالي نصف مليون من مواطني هذه الأقطار!! هذا إلى ما قبل التطورات الأخيرة في العراق والسودان. ونفس الشيء ينطبق على الموارد المالية والمادية الأخرى، فما أُهدِر من هذه الموارد في الحروب الأهلية العربية، يفوق بأضعاف نظيره في الصراع العربي الإسرائيلي.

***

لقد عانى لبنان من حرب أهلية مدمرة، استمرت حوالي ستة عشر عامًا، فقد على أثرها لبنان مركزه المميز تجاريًّا ومصرفيًّا وسياحيًّا، ودمّر اقتصاده بشكل كامل، وبلغ عدد ضحايا تلك الحرب القذرة ٢٢٥ ألف قتيل، ومليون مهجّر، علمًا بأنّ تعداد الشعب اللبناني حينما اندلعت الحرب الأهلية، لم يكن يتجاوز ٢,٥ مليون نسمة.

وفي تركيا، حيث تدور رحى حرب ضروس بين الأكراد والدولة التركية، أسفرت لحدّ الآن عن حوالي عشرين ألف قتيل، وتكلّف ميزانية الدولة التركية عشرة مليارات دولار سنويًّا.

وهـذه أفغانسـتان تعصف بها حرب داخلية شـعواء بين فصائل المجاهديـن منذ خمس سـنوات وقد زاد عـدد ضحاياها لحدّ الآن على ٤٥ ألف قتيل.

والصومـال ومنـذ سـبع سـنوات، يعيـش حربًـا أهليـة مدمّرة، انهـارت علـى أثرها مؤسسـات الدولـة، وتمزّق الشـعب والوطن، وسادت المجاعة والفقر والأمراض الفتاكة والأوبئة.

ويعيش الشـعب المسلم في باكسـتان أجواء فتنة طائفية مؤلمة، بين السـنة والشـيعة، حيث يتبادل الطرفان الهجوم على المسـاجد، وإطـلاق النـار علـى المصليـن، واغتيـال الشـخصيات العلميـة والسياسـية مـن الجانبين، وقد حصدت هذه الفتنـة خلال هذا العام سـبعين شـخصية عاملة نشـطة، في المجالين الديني والاجتماعي، من أوساط السنة والشيعة.

***

إنّ جراحات الاحتراب الداخلي لا تزال تنـزف من جسـم أمتنا الإسلامية في أكثر من مكان، وبدرجات متفاوتة.

وذلك يؤكد ضرورة التوافق على مبدأ التعايش، والقبول بالآخر ومشاركته، بدل التفكير في إلغائه أو تجاهله أو تهميشه.

وصفحات هذا البحث إسهام متواضع في التبشير بمبدأ التعايش انطلاقًا من أنّ التنوع ظاهرة كونية واجتماعية، شاءتها حكمة الخالق

جلّ وعلا، وإنّ مفاهيم الدين وتعاليمه توجهنا للتعاطي الإيجابي مع واقع التنوع والاختلاف، كما نجد في تاريخنا الإسلامي المجيد، صفحات رائعة، ونماذج مشرقة، نستلهم منها العبرة والقدوة، في تطبيق منهج التعايش الكريم.

ولا يفوتني أن أشير إلى أنّ نواة هذا البحث، كانت محاضرة ألقيتها في مدينة القطيف، بتاريخ ٤/ ١/ ١٤١٦هـ، وكان للأخ الكريم الفاضل ذاكر آل حبيل، شكر الله مساعيه، دور أساس في التشجيع والمساعدة على تحويل المحاضرة إلى بحث مكتوب، حيث قمت بإعادة صياغة الموضوع وتوسيعه وتوثيقه راجيًا من الله تعالى القبول والتوفيق.

الفصل الأول

التنوّع ظاهرة كونية واجتماعية

- مدخل
- التنوع العرقي والقومي.
- التنوع اللساني واللغوي.
- التنوع الديني.

مدخل

آيـات عديـدة في القرآن الحكيـم، تتحدث عن التنـوع والتعدد في حياة البشـر، فرغم أنّ البشـر يتساوون في إنسانيتهم العامة، وفي خصائصهـم الأولية المشـتركة، إلّا أنّهم في حقيقـة الأمر يتمايزون بدرجة وأخرى داخل المحيط البشري.

وهـذا التنـوع الـذي يتحدث عنـه القرآن فـي حياة البشـر، إنّما هو جزء من ظاهرة كونية، تشـمل أصنـاف المخلوقات والكائنات، فمجرات الفضـاء، وكواكبه متعددة متنوعة، وعالـم النبات يحتوي علـى ألوان وأشـكال مختلفـة، رغم وحـدة التربة التي ينبـت منها، والماء الذي يسـقى به يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّـاتٌ مِّنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْـقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[سـورة الرعد، آيـة: ٤]، ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[سورة الأنعام، آية: ١٤١].

وعالم الحيوان، هو الآخر عالم متنوع، فدوابّ الأرض، وطيور السماء، ليست أمة واحدة، وإنّما هي أمم متعددة ومتنوعة، يقول تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[سورة الأنعام، آية: ٣٨].

وحتى الملائكة، ليسوا جميعًا في مستوى واحد، وعلى شاكلة واحدة، بل هناك تنوع في أشكالهم، ومهامهم، ومقامهم، يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة فاطر، آية: ١].

أما بالنسبة لعالم الإنسان، فقد تحدث القرآن الحكيم عن العديد من جوانب التنوع، في حياته، وضمن الأبعاد المختلفة.

التمايز الفردي:

فهناك نوع من التمّيز الشخصي، لكلّ فرد من أفراد البشر، فصورته، وصوته، يميزانه عن الآخرين، ولذلك تنطبع لكلّ فرد صورته وصوته الخاصّ في الأذهان، ولذلك أيضًا اعتمد التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل الصوتي للدلالة على الشخص.

وإذا كان يحصل شيء من التشابه في معالم الوجه، ونبرات الصوت، فإنّه أمر نادر يشار إليه، كما أنّ ذلك التشابه يمكن تجاوزه بالتدقيق والتأمل.

بَيْـدَ أنّ خطوط أطراف أصابع يد الإنسـان، تسـجل تمايزًا دقيقًا بيـن أفراد البشـر، فإبهـام كلّ إنسـان، والخطوط الموجـودة فيه، لا تتشـابه مع أيّ إنسان آخر، مهما كانت درجة القرابة بينهما، حتى في الحيّز الوراثي الواحد.

مليارات البشـر، ولكلّ واحدٍ منهم خصيصته الخاصة، في هذا المجال المتمايز بينهـم، ومن هنا يعتبر أخذ بصمات الإنسـان دليلًا ثبوتيًّا واضحًا يسـتدلّ بها عليه. ولعلّ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَـوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[سـورة القيامـة، آية: ٤] إشـارة إلى هـذه الحقيقة العلمية، تسـبق مـا أثبته العلم أخيـرًا في هذا المجـال، حيث أصبح لدينـا علم مسـتقلّ بذاته، يسـمى (علـم البصمات) يسـتفاد منه في القانـون الجنائي، وتعتمد عليه الدوائر الأمنية، في مكافحة الجريمة ومعرفة المجرمين.

(ويبـدأ تخلّـق البصمـة على أطـراف أصابعنا، ونحـن أجنّة في بطـون أمهاتنا، وتنتهي من رسـم صورتهـا النهائية، في أربعة أشـهر على وجه التقريب، ويقع هذا التشكل بطريقة يجهلها العلم.

ويسـتحيل أن يوجد تشابه بين بصمة إنسان وبصمة إنسان آخر، ولا يوجد احتمال للتشابه بين بصمات ١٧ ألف مليون شخص.

وقبل سنة ١٨٨٣م لم تكن البصمة معروفة.

هل هناك احتمال أن تتشابه بصمة إنسان مع إنسان آخر حتى لو

كان الاثنان توائم؟

تقارن كلّ يوم ٨٠ ألف بصمة على مستوى العالم، ولم تحدث حالة تشابه واحدة حتى بين التوائم، هذا ما أثبتته معامل الأبحاث، وأثبتت النظريات الرياضية أيضًا عدم وجود هذا الاحتمال بين ١٧ بليون شخص)[1].

تفاوت على مستوى العلم والمعرفة:

فمستوى الذكاء والفطنة، يتفاوت بين الناس، حتى أصبحت له مقاييس ومعدلات يرصد بها، وتحدد درجاته المتفاوتة، كما أنّ الرغبة في العلم والمعرفة، تختلف من شخص إلى آخر، وأخيرًا فإنّ للظروف والأجواء التي يعيشها الإنسان أثرًا في إتاحة الفرصة لكسب العلم والمعرفة.

ونتيجة لكلّ ما سبق، يتفاوت مستوى العلم والمعرفة عند الناس يقول تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[سورة يوسف، آية: ٧٦].

تفاوت الحالة الاقتصادية:

كما أنّ البشر في حياتهم المعيشية المادية، ووجهها الاقتصادي، متغايرون أيضًا، فيوجد غني وفقير، وفيما بينهما درجات عدة

(١) أحمد بهجت. بصمة الأصابع، مقال في جريدة الحياة، ص ٢٠، العدد ١٢٠١٤ بتاريخ ٢٤/ ٨/ ١٤١٦ هـ.

متفاوتة، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [سورة الزخرف، آية: ٣٢].

حيث إنّ تفاوت المواهب والقدرات والرغبات، بين أبناء البشر، هو الذي يشعرهم بحاجتهم إلى بعضهم بعضًا، وإلّا فما الذي يدفع العامل، إلى بذل الجهد، لصالح صاحب المال، إن لم يكن العامل بحاجة إلى المال، كما أنّ صاحب المال، إنّما يبحث عن العامل، لحاجته إلى الخبرة الفنية المهنية.. وهكذا في سائر مجالات الحياة، فالبشر ليسوا نسخًا مكررة عن بعضهم بعضًا، في المواهب والقدرات والرغبات، وإنّما هم متفاوتون مما يدفعهم للتعامل مع بعضهم، وتسخير بعضهم بعضًا لصالح المجموع ولتقدم حركة الحياة.

وهذا التفاوت يترتب عليه تمايز مستوى المعيشة واختلاف أنماطها.

التنوع العرقي والقومي

رغـم أنّ مصدر الإنسـانية رجـل واحد وامرأة واحـدة، هما آدم وحـواء، كما يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء، آية: ١].

إلّا أنّ اسـتمرار حركة التناسـل البشري، واتّساع رقعة معيشتهم على سـطح المعمـورة، أدى بمـرور الزمن، إلـى أن تتكيف مظاهر وأشـكال تكونهم الجسدي، بما يتناسب وظروف المحيط الطبيعي الـذي يعيشـون فيه، ونظرًا لاختـلاف الأجواء والظـروف الطبيعية، التي تعيشـها مجاميع البشر، فقد أفرزت حالات من الاختلاف، في المظاهر والأشكال بين تلك المجاميع.

وهذه أرجح نظرية يفسـر بها تعدد الأعراق بين بني البشـر، في مقابل نظريات مقولة العرق العنصرية التي أسس لها (غوبينو) والتي فنّدها دارسـو علم الإنسان الغربيين أنفسهم، وأثبتوا أنّ ذلك التباين

العرقي ليس له أهمية من حيث تفوق عرق على عرق، أو شعب على شعب، في المستوى الحضاري، بل إنّ القضية لا تعدو أن تكون سوى إيحاء، لإقناع دول وشعوب العالم المستضعف، بقدرية تلك الدونية العرقية، التي هي السبب في تخلفهم الحضاري، وعليهم أن يبقوا كذلك إلى ما شاء الله..!! وألّا يحاولوا النهوض بذاتهم الإنسانية والحضارية إلى مصافّ تلك الدول المتقدمة.

يقول المفكر الفرنسي الدكتور(كلود ليفي شتراوس) أستاذ الإنثربولوجيا الاجتماعية:

(لكن تاريخ مقولة العرق، هو أيضًا تاريخ الفشل الذريع الذي منيت به هذه الأبحاث مرارًا وتكرارًا، فقد تبيّن أنّ جميع السّمات التي ذكرت على التوالي، من أجل تحديد الاختلافات العرقية، ترتبط واحدة بعد واحدة بظاهرات تكيفّية، حتى ولو كانت أسباب قيمتها الانتخابية خافية علينا أحيانًا، من ذلك مثلًا: حالة شكل الجمجمة الذي نعلم أنه يتجه أينما كان نحو التكوّر، ومن ذلك أيضًا حالة لون الجلد، الذي يميل لدى أقوام المناطق المعتدلة، نحو اللون الفاتح، لكي يعوّض عن نقصان الإشعاع الشمسي، ويساعد الجسم على مقاومة داء الكساح، ثم ما لبثت الأبحاث أن انصبت على فئات الدم، لكنها سرعان ما أخذت تلاحظ أنّ هذه بدورها،

لا تخلـو من قيمة تكيفّية. وإنّ هـذه القيمة، ربما كانت مرتبطة بعوامل غذائية، أو ناجمة عن اختلاف حساسية حامليها تجاه أمراض معيـنة، كالـجدري أو الطـاعون، وربمـا كان الأمـر كذلـك أيضًـا بالنسـبة لبروتينيـات الـمصل الدمـوي)[1].

(١) كلود ليفي شـتراوس. مقالات في الأناسة، ص ٢٢٥، اختارها وترجمها د. حسن قبيسي، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، دار التنوير ـ بيروت .

التنوع اللساني واللغوي

ومن أجلى ألوان التنوع في حياة البشر، تنوع اللغات وتعدّدها، فقد أبان العلماء أنّ هناك حوالي ٣٠٠٠ لغة منطوقة في العالم اليوم، ولا تدخل اللهجات في إطار هذا العدد، وهي أشكال محلية للغة، وهناك لغات كثيرة، تتكلمها مجموعات صغيرة، مكونة من بضع مئات، أو آلاف من البشر، كما توجد أكثر من مئة لغة، يتكلم بكلّ منها مليون أو أكثر من الناس، ومن بين هذه اللغات توجد ١٩ لغة يتكلم بكلّ منها ما يربو على ٥٠ مليون نسمة[١].

ومن أوسع اللغات انتشارًا، اللغة الصينية، التي يستعملها أكبر عدد من البشر، إذ هي لغة ١٠٠٠ مليون إنسان، وفي الهند وحدها ثمة ٨٥٠ لغة ولهجة محلية مستعملة[٢].

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج٢١، ص ١١٩، الطبعة الأولى ١٩٩٦م ـ الرياض.
(٢) كتاب غينس للأرقام القياسية. ص١٥٠، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق.

لقد منح الله تعالى الإنسان القدرة على التعبير عمّا يدور في نفسه، عبر النطق والكلام يقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[سورة الرحمن، آيات: ٣ و٤].

ورغم أنّ الحيوانات تستخدم التصويت أيضًا، للتعبير عن مشاعرها، وضمن نظام حياتها الجمعي، إلّا أنّ ذلك لا يرقى ولا يصل إلى مستوى اللغة التي يمتلكها الإنسان، يقول أحد الباحثين في علم الدراسات اللغوية:

(إنه ليس لدى أيٍّ من المخلوقات الأخرى غير البشرية لغة حقيقية تتوفر فيها جميع المواصفات التي تتوفر في لغة الإنسان، فبعضها تتوفر فيه بعض تلك المواصفات والبعض الآخر تتوفر فيه مواصفات أخرى، إلّا أنّها جميعًا تبدو مقصورة على إطارات معينة لا تتعداها، وليس في أيّ منها تلك المقومات التي تساعدها على خلق التراكيب التي تتطلبها المواقف الجديدة. فاللغة الحقيقية إذا ظاهرة خاصة بالإنسان)[1].

ولأنّ بداية الإنسان كانت مجتمعًا صغيرًا، واحدًا يتمثل في أبي البشر آدم، وزوجته حواء، وأبنائهما، فلا بُدّ وأن تكون لهم لغة

(١) الدكتور نايف خرما. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص١٥٢، سلسلة عالم المعرفة (٩)، الكويت ١٩٧٨م.

واحدة، تفرعت فيما بعد إلى عدة لغات، بسبب تكاثر أبناء البشر، والتباعد بين مجاميعهم، لذلك (يصنف الباحثون اللغات إلى عائلات، والعائلات اللغوية، هي مجموعة من اللغات المترابطة؛ لأنّها جميعها نشأت بصورة بطيئة من لغة واحدة، موغلة في القدم، تسمى لغة الأصل. عندما يصبح المتكلمون بلغة ما منقسمين إلى مجموعات، لا يتصل بعضها ببعض، تستمر لغة كلّ مجموعة بالتغير بطريقتها الخاصة، وبعد عدة قرون تتكلم تلك المجموعات بشكل مختلف، إلى درجة بعيدة، بحيث إنّها لا تفهم بعضها بعضًا، ومع ذلك فإنّ اللغات في كلّ عائلة، لا تزال تعتبر مرتبطة معًا؛ لكونها نشأت من نفس اللغة الأصل. وكان أول من أشار إلى أنّ اللغات عائلات، هو ابن حزم الأندلسي، حيث أشار إلى أنّ اللغات أسر كالبشر)[1].

ورغم أنه ليست هناك رؤية واضحة ثابتة، حول كيفية بدء اللغة في حياة البشر، ولا يتوفر تاريخ كامل لمراحل تطور اللغة، وتفرّعها وتطورها، إلّا أنّ كلّ المؤشرات تدلّ على وحدة اللغة في الأصل، ومن تلك المؤشرات وجود أسس عامة لجميع اللغات.

(لقد بيّن الكثير من اللغويين ـ ومن أهمهم تشومسكي وجر ينبرغ وهيلمسلف ـ أنّ هناك أسسًا صوتية ونحوية ودلالية مشتركة، بين جميع لغات العالم، بغض النظر عمّا إذا كانت بين بعضها

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج٢١، ص١٢٣.

علاقات تاريخية أم لم تكن، ففي جميع لغات العالم، مفردات تدلّ على الأشياء والمشاعر والصفات والأفعال والعلاقات المختلفة، ومن الناحية البيولوجية ليس هناك فروق تذكر، من حيث دلالات هذه المفردات، كما أنّ هنالك أسسًا أخرى مشتركة بين اللغات، وردت الإشارة إلى بعضها أعلاه، بالإضافة إلى هذا، فإنّ من المعروف أنّ أيّ طفل أو أيّ إنسان عمومًا، بإمكانه أن يتعلم أية لغة في العالم، وعلى هذا فإنّ من الواضح أنّ المهارات الأساسية اللازمة لاكتساب اللغات المختلفة واحدة، على الرغم من وجود الاختلافات بين أجناس البشر من النواحي الفيزيولوجية)[1].

والدراسات اللغوية أصبحت علمًا هامًّا من العلوم الإنسانية، ولها مدارسها ونظرياتها المتعددة، وكلّما توغل علماء اللغة في التحقيق والبحث، ظهرت لهم آفاق جديدة في هذا الميدان، وارتسمت أمامهم ألغاز وأسئلة وأسرار، تحتاج إلى الاستكشاف والتنقيب، مما يثبت عظمة وأهمية هذا البعد في حياة الإنسان، الذي هو مظهر من مظاهر قدرة الخالق وعظمته.

لذلك يعتبر القرآن الحكيم تعدد اللغات واختلاف الألسنة، آية من آيات الله، ويذكرها إلى جانب ذكر خلق السماوات والأرض، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[سورة الروم، آية: ٢٢].

(١) نايف خرما. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص ١٦٨.

ولا يعكس اختلاف الألسنة وتعدد اللغات، حالة تفاضل أو تفوق بين الشعوب، فليست هناك لغة تمنح التقدم للناطقين بها، أو لغة تفرض التخلف على أبنائها، وإنّما اللغة وعاء وأداة، تتسع وتضيق حسب مستوى ثقافة المتحدثين بها، يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام ضمن حديثه المفصّل عن توحيد الله تعالى، الذي أملاه على تلميذه المفضّل بن عمر:

(تأمل يا مفضّل ما أنعم الله تقدّست أسماؤه به على الإنسان، من هذا النطق، الذي يعبّر به عمّا في ضميره، وما يخطر بقلبه، وينتجه فكره، وبه يفهم عن غيره ما في نفسه..).

إلى أن يقول عليه السلام: (وكذلك الكلام إنّما هو شيء يصطلح عليه الناس، فيجري بينهم، ولهذا صار يختلف في الأمم المختلفة بألسن مختلفة)[1].

فاللغة أداة للتفاهم والتخاطب، واختلافها من أمة إلى أخرى، لا علاقة له بجنس تلك الأمة ولا بمستوى رقيّها أو انحطاطها، لذلك ترى أهل لغة معينة، في فترة من الزمن، في أوج التقدم والازدهار، ثم تتوقف مسيرة تقدمهم، ويتراجع مستواهم، فيصبحون في قاع التخلف والانحطاط، مع احتفاظهم بلغتهم، وقد يحصل العكس.

كما قد يتفاوت مستوى المجتمعات الناطقة بلغة واحدة،

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٣، ص ٨٢، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

ممـا يدحض بعـض النظريـات العنصرية التي ترفع من شـأن بعض الشـعوب، وتغـضّ من شـأن شـعوب أخـرى، بنـاءً علـى اختلاف لغاتهم.

(لقد حاول البعـض في الماضي، أن يربطوا بين اللغة والجنس البشـري، وأن يدّعوا بأنّ لغة الشـعوب الآرية مثلًا من ذوي الشعور الشـقراء والعيـون الزرقاء، لغة راقيـة؛ لأنّ من يتكلمها شـعب راقٍ متقدم عن غيره، بل اتخذوا من ذلك الادّعاء بالسّمو ذريعة لاستعمار البلـدان الفقيـرة، واسـتعباد شـعوبها الجاهلة، المتخلفـة عن ركب الحضـارة، وقد أخذ بهذه النظرية فـي عصرنا الحاضر النازيون، في ألمانيا، والفاشيون في إيطاليا، وصنّفوا الشعـوب ولغاتهم تصنيفهم المعروف، فأتى العرب في ذيل القائمة.

لقد ثبت الآن بالدليل القاطع، أنه ليس هنالك مثل هذه العلاقة، وأنّ أيّ شـعب قـادر على اكتسـاب أية لغة من لغـات الأرض، كما أنـه ليـس للغة فضل على لغـة أخرى، إلّا بما اكتسـبته خلال العصر الحاضـر من تفـوق في المفـردات الدالة علـى العلـوم والتقنيات، الحديثـة التي تتميز بها الحضارة الغربية، وهو فضل مؤقت، ينمحي فـي وقـت قصيـر، إذا اسـتطاعت اللغات الأخـرى اللحـاق بركب الحضارة بالسرعة المطلوبة)[1].

إنّ تقـدم مسـتوى أيّ أمـة حضاريًّا، ينعكس علـى لغتها، حيث

(١) نايف خرما. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص٢٤٢.

تنبثـق مفـردات جديـدة للتعبير عن تطـورات حياة تلـك الأمة. كما حصـل للغـة العربية، التي شـهدت توسّـعًا وتطـوّرًا كبيـرًا بعد قيام الحضارة الإسـلامية. وكذلك الحال بالنسـبة للغات الأوروبية التي تأثرت إيجابيًّا بالثورة الصناعية والتطورات العلمية والتكنولوجية.

التنوع الديني

الديـن ظاهرة عميقة الوجود والجذور في حياة الإنسـان، وهي انعكاس لخاصية التفكير والإدراك، التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوانـات، فتدفعه إلى التسـاؤل عن أصل وجـوده، وغاية خلقته، وآفاق مصيره، وعن القدرة التي أنشأته، ومدى ارتباطه بها، وعلاقته معها.. والإجابات التي يتوصل إليها الإنسان على هذه التساؤلات، هي دينه ومعتقده.

ولأنّ الإنسـان وُجِدَ مفكّرًا مدركًا، فإنّ الدين قد رافقه من بداية حياتـه، من هنا (ذهـب بعض مـؤرخي الأديان، إلى أنّ الدين بدأ مع بداية حـياة الإنسان على الأرض، منذ نحو مليـوني سـنة مضت)[1].

وقـال (بلوتارك) المؤرخ الإغريقي الشـهير منـذ نحو من ألفي سنة: (قد نجد مدنًا بلا أسوار، أو بدون ملوك، أو حضارة أو مسرح، ولكن لم يُرَ إنسان مدينة بدون أماكن للعبادة والعبّاد).

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج١٠، ص٥٦٩.

وكتب (برجسون) بعد ذلك بنصف قرن تقريبًا فقال: (لقد وجدت ولا تزال حتى الآن مجتمعات إنسانية بدون علم ولا فنّ ولا فلسفة، ولكن لم يوجد مجتمع إنساني بدون دين)[1].

وكما حصل التنوع والاختلاف في سائر جوانب حياة الإنسان، فقد شمل هذا الجانب الخطير أيضًا، حيث إنّ الله سبحانه وتعالى، لم يترك الإنسان حائرًا، تتقاذفه أمواج التساؤلات دون إجابة صحيحة وافية، فبعث له أنبياء هداة، يرشدونه إلى الدين القويم والصراط المستقيم.

لكن دور الأنبياء يقتصر على تبليغ رسالة الله، وليس لهم حقّ السّيطرة والهيمنة، وإجبار الناس على قبول دين الله، فانقسم الناس إلى شطرين رئيسين: شطر استجاب لدعوة الأنبياء بقناعة وإيمان، والشطر الآخر أعرض عن رسالات الله، ونحت من أوهامه وتصوراته ديانات ومعتقدات وثنية خرافية، يقول تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾[سورة النحل، آيات: ٣٥ و٣٦].

ضمن هذين الشطرين الرئيسين، حدثت انشطارات عديدة وكثيرة، حيث اقتضت حكمة الله سبحانه، توالي إرسال الرسل

(١) علي عزت بيجوفيتش. الإسلام بين الشرق والغرب، ص٦٠ ـ٦١، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافاريا.

وبعث الأنبياء؛ لأنّ تطور حياة البشر كان يستلزم تجديد وتطوير أنظمة الشرائع الإلهية، مع وحدة جوهر العقيدة في كلّ الرسالات السماوية، ولأنّ بعض أتباع رسالات الأنبياء والمنتمين إليها، كانوا يحدثون فيها التحريف والتزييف، حتى يغطي على أصل الرسالة وحقيقتها، فيقتضي ذلك ابتعاث نبي جديد، يعيد الناس إلى جادة الهدي الإلهي، حتى ختم الله تعالى الرسل والأنبياء بنبينا محمد ﷺ.

لكن ما حدث هو تشبّث البعض ببقايا الرسالات السابقة، مع ما طرأ عليها من تحريف، وعدم إذعانهم للأنبياء اللاحقين، وهكذا تعددت الديانات ضمن الشطر الأول، أتباع الديانات السّماوية، وأهمها: الإسلام والنصرانية واليهودية.

أما بالنسبة للشطر الآخر، الذي أعرض عن رسالات الله، وابتدع له ديانات وثنية، فقد تفرقت بهم السُّبل، وتعددت الأهواء، لكنّ أشهر تلك الديانات: الهندوسية، والزرادشتية، والكنفوشية، والبوذية، والطاوية، والشنتو.

الأعداد التقريبية لأتباع بعض الديانات[1]	
المسلمون	٩٢٤,٦١٢,٠٠٠
الرومان الكاثوليك	٩٧١,٧٠٢,٠٠٠
الهندوس	٦٨٩,٢٠٥,٠٠٠

(١) الموسوعة العالمية. المجلد ١٠، ص٥٧١.

البروتستانت	**٤٢٢,٤٢٩,٠٠٠**
البوذيون	**٣١١,٤٣٨,٠٠٠**
أديان الصين الشعبية	**١٧٠,٢٣٦,٠٠٠**
الأرثوذكس	**١٦٣,٦٢٣,٠٠٠**
السيخ	**١٧,٧٣٥,٠٠٠**
اليهود	**١٧,٣٥٧,٠٠٠**
الشنتو	**٣,٢٠٥,٠٠٠**

وقد تحدث القرآن الحكيم عن تعدد الديانات، وأثبت ذكر أهمّ الديانات السماوية والوثنية، معتبرًا ذلك التعدد والاختلاف ظاهرة طبيعية في هذه الحياة؛ لما منح الله تعالى الإنسان من حرية اختيار، وأودع في نفسه من نوازع الخير والشّر، أما الحسم والفصل بين أتباع هذه الديانات فهو مؤجّل إلى ما بعد الحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة الحج، آية: ١٧].

والآية الكريمة تذكر أتباع ستّ ديانات كانت معروفة وسائدة: المسلمون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ واليهود ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ والصائبة، والمسيحيين ﴿النَّصَارَىٰ﴾ والمجوس والمشركين.

والمتمعّن في جوهر المعنى القرآني في هذا المجال، وضمن سياقه الموضوعي، يلاحظ دون أدنى شك طبيعة الإقرار القرآني بحقيقة الاختلاف الديني بين بني البشر، بل ويبسط مدارات الحديث عن ذلك في أكثر من جهة وموضوع.

فأولًا: لا يمكن إلغاء حالة التعدد الديني بالقوة والفرض حيث ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة، آية: ٢٥٦] و﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[سورة الكافرون، آية: ٦].

ثانيًا: والمؤمن بدين الله، عليه أن يعتمد الأسلوب اللائق المناسب في الدعوة إلى دينه، دون تهريج أو تجريح أو تشنج وانفعال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[سورة النحل، آية: ١٢٥].

ثالثًا: يفترض أن يستهدف الإنسان من تديّنه الوصول إلى الحقيقة، فلا بُدّ له حينئذٍ من الانفتاح على الديانات والآراء الأخرى، بحثًا عن الحقّ والصّواب، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[سورة الزمر، آية: ١٨].

ولا يصح له أن ينكفئ على عقيدته الموروثة، دون تفكير أو نقاش ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[سورة المائدة، آية: ١٠٤].

لذا ينبغي أن يسود الحوار السليم بين الديانات المختلفة،

اعتمادًا على الدليل والبرهان ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[سورة الأنبياء، آية: ٢٤].

والحوار بين الأديان يجب أن يكون موضوعيًّا هادئًا، على أساس الاحترام المتبادل ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[سورة العنكبوت، آية: ٤٦].

رابعًا: والاختلاف الديني بين الناس لا ينبغي أن يؤدي إلى الصّراع والنّزاع، فالأصل في العلاقة بين أبناء البشر، هو التعايش والانسجام، والاحترام المتبادل، أما من تسوّل له نفسه الاعتداء على المختلفين معه، فلا بُدّ من ردعه ومواجهة عدوانه: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[سورة الممتحنة، آية: ٨].

وينهى الإسلام عن جرح مشاعر أتباع الديانات حتى لو كانت وثنية، بسب مقدساتهم؛ لأنّ ردّ فعلهم الطبيعي سيكون سبّ مقدّسات المسلمين ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[سورة الأنعام، آية: ١٠٨].

الفصل الثاني:

التنوع والاختلاف رؤية إسلامية

- أولًا: مظهر للقدرة والحكمة الإلهية.
- ثانيًا: مشروعية التنوع.
- ثالثًا: التنوع للتعارف.
- رابعًا: التنافس الإيجابي.

أولاً: مظهر للقدرة والحكمة الإلهية

كثيرًا ما كان التنوع بين أبناء البشر سببًا للصراع والتنازع، أما لسعي فئة ما باتجاه إلغاء شخصية الفئات المختلفة والمغايرة، وإخضاعها والهيمنة عليها، أو لبروز نظريات وتصورات واهمة بذاتية التفوق لانتماء معيّن على الآخرين، أو لوجود جهة تستغل حالة التنوع، بإذكاء الخلاف والعداء من أجل مصلحة أو مطمع.

وتاريخ البشر مليء بالحروب والصراعات التي نشبت على أساس التغاير الديني، أو العرقي، أو القومي، أو القبلي، أو حتى الطبقي..

فما هي رؤية الإسلام للتنوع والتمايز بين أبناء البشر؟

بالتدبّر في آيات القرآن الحكيم، وبالقراءة الواعية لنصوص السنة الشريفة، وسيرة أئمة المسلمين، يمكننا أن نستكشف رؤية واضحة للتعاطي مع موضوع التنوع والاختلاف.

يوجه القرآن الحكيم أنظار البشر وعقولهم، إلى التأمل والتفكر في دلالات هذا التنوع والتغاير في المخلوقات، مع رجوعها إلى أصول ومكونات واحدة، ففي ذلك أجلى الآيات على قدرة الخالق وعظمته، وعلى إبداعه، حيث يضفي هذا التنوع على الكون والحياة جمالًا وروعة، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وخلف هذا التنوع أسرار وأسباب وعوامل، على الإنسان أن يحرّك ذهنه، ويبذل جهده، لاستنباطها وإدراكها، ولن يتوصل إليها إلّا بالعلم والمعرفة.

ويستعرض القرآن الحكيم بعض ظواهر التنوع في الكون والحياة، لتكون نماذج وأمثلة لهذه الحالة العامة، التي تستدعي التأمل والتفكير.

أ. فالعسل، هذا الغذاء القويّ الشهيّ، الذي تنتجه النحل بعد امتصاصها لرحيق الأزهار، يأتي في ألوان مختلفة، ونكهات متعددة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[سورة النحل، آيات: ٦٨ و٦٩].

ب. وفي مورد آخر يتحدث القرآن الكريم عن التنوع في عالم

النبات والجماد والحيوان والإنسان، وأنّ التأمل في ظاهرة التنوع الشاملة في الكون، والبحث العلمي عن أسرارها وأبعادها، يقود الإنسان إلى إدراك شيء من عظمة الخالق المدبر، وقدرته البالغة، فتخشع نفسه لله، وتستجيب لأمره، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[سورة فاطر، آيات: ٢٧ و٢٨].

ج. والنعم التي أعدها الله تعالى للإنسان في هذه الحياة، والقوى التي سخرها لخدمته، ليست من نوع واحد، أو على نمط واحد، بل هي متعددة الأشكال والألوان حتى ضمن النوع الواحد، لكن الإنسان بحاجة إلى تركيز ذهني بالتذكر والتأمل ليستنتج من ذلك الدلالات المطلوبة: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة النحل، آية: ١٣].

د. وضمن نفس السياق يأتي الحديث عن التنوع في عالم الإنسان، حيث تختلف أعراقه وقومياته، ولغاته وألوانه، ووراء كلّ ذلك حقائق وأسرار، لا يدركها إلّا من اجتهد في البحث العلمي، حيث يتضح للعلماء أنّ ذلك التنوع، ما هو

إلّا مظهـر من مظاهر القــدرة والحكمة الإلهيـة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[سورة الروم، آية: ٢٢].

ثانيًا: مشروعية التنوع

واضح أنّ التنوع بين الناس على نوعين:

الأول: تنـوع طبيعي تكويني، وجد الناس أنفسـهم ضمنه، دون اختيار منهم، حيث لا يستشار أحد. ولا يخيّر قبل مجيئه لهذه الدنيا، في انتمائه العرقي أو القومي، ولا في ملامح شكله ومظهره، فالأبيض لم ينتخب البياض لنفسه، ولا الأسـود اختار السـواد لشـكله، ولم يقرّر أحد من البشر لنفسـه أن ينحـدر من السـلالة التـي انحدر منهـا، أو أن ينتمي إلى القومية التي وجد نفسه منتميًا إليها.

وهـذا التنـوع الطبيعي يتـم بأمر الله ومشـيئته؛ لذلـك يعبّر عنه تعالى بالجعل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾[سـورة الحجرات، آية: ١٣]، فالله تعالى هو الذي جعلنا متنوعين في أعراقنا وقومياتنا وشعوبنا.

الثاني: تنوع اختياري كسبي، يرتبط بقناعات الإنسان وأفكاره، ونمط سلوكه واتجاهه، فكلّ إنسان هو الذي يقرّر ما يعتنق من دين، وما يؤمن به من فكر، وما يرتضيه لنفسه من ثقافة وسلوك، وتبعًا لذلك تتعدد الأديان بين الناس وتختلف المدارس الفكرية، وتتنوع التوجهات السّياسية.

وهذا التنوع ناشئ من تقدير الله تعالى وحكمته لوجود الإنسان في هذه الحياة، حيث خلقه الله تعالى حرًّا مريدًا مختارًا قادرًا على التفكير، واتخاذ القرار، ليكون في موضع الابتلاء والامتحان، فيستحق الثواب والعقاب.

يقول تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[سورة المائدة، آية: ٤٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[سورة هود، آية: ١١٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[سورة النحل، آية: ٩٣].

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً﴾[سورة الشورى، آيات: ٧ و٨].

ولأهمية هذه الحقيقة، ولأنّ بعض الناس، قد يحاول مصادرة قرار الآخرين وحرياتهم، بفرضه ما يؤمن به عليهم، لذلك يكرّر القرآن ذكر هذه الحقيقة لتأكيدها وتثبيتها.

فلو كان فرض الاتجاه مقبولًا، لسيّر الله خلقه وعباده في طريق الإيمان به، والخضوع لدينه الحقّ، ولكنه تعالى لحكمته ترك حرية الاختيار للإنسان: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[سورة الكهف، آية: ٢٩].

وإذا كانت حكمة الله تعالى قد أتاحت الفرصة، لظهور هذا التنوع بين الناس في أديانهم واتجاهاتهم، باعتبارهم أحرارًا في الاختيار، ولأنّهم يعيشون دنيا ابتلاء وامتحان، فهل يصح لأحد أن يفكر في إلغاء هذا التنوع، وأن يفرض على الناس اتجاهًا واحدًا؟

كلّا!

فحتى الأنبياء إنّما يقومون بدور التبليغ والإرشاد، وليس لنبي أو رسول حقّ الفرض والسيطرة.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، آية: ٩٩] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية، آيات: ٢١ و٢٢].

صحيح أنّ الحقّ واحد لا يتعدد، لكن كلمة الفصل والحسم

لإلزام الإنسان بالحقّ، وإخضاعه له، مؤجلة إلى يوم القيامة، وبعد أن تنتهي فرصة الابتلاء والامتحان في الدنيا، هنالك يصبح جميع الناس أمام الحقيقة الملزمة الحاسمة، أما في الدنيا فالمجال متاح للتنوع والاختلاف، بين الأديان والمذاهب والآراء، وحيث تدّعي كلّ جهة أنّ الحقّ معها، وفي حوزتها، إما عن اقتناع أو تعصّب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[سورة البقرة، آية: ١١٣].

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة المائدة، آية: ٤٨].

وهكذا تتضح لنا مشروعية التنوع في رؤية الإسلام، بمعنى الإقرار بحقّ الآراء والتوجهات المختلفة، في الوجود والظهور، بغض النظر عن صوابيتها وصحتها، وإلّا فإنّ الحقّ واحد، والدين المقبول عند الله واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[سورة آل عمران، آية: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[سورة آل عمران، آية: ٨٥].

ثالثًا: التنوع للتعارف

إذا كان التنـوع ناتجًا عن التمايز في الخلفيات، أو الثقافات، أو أنماط وظروف الحياة، أو غير ذلك، من جوانب الاختلاف والتمايز، فإنّ هـذا التنوع يجب أن يكون دافعًا نحـو التعارف والتواصل، بين المجاميع البشرية المختلفة.

أولًا: لكـي تطّلـع كلّ مجموعة بشـرية، علـى واقـع المجاميع الأخـرى، وتتعـرف علـى خصوصياتهـا ومميزاتهـا، فالإنسان مجبول على حبّ الاطّلاع، والرغبة في المعرفة والعلم، كما أنه يميل إلى أبناء جنسه، وذلك يشكّل حافزًا للتعارف والتواصل بين أبناء البشر في الوضع الطبيعي.

ثانيًا: إنّ تعـرف كلّ أمـة ودراسـتها لواقـع الأمـم الأخـرى، يثـري تجربتها، ويتيـح لها فرصة الاسـتفادة من نقاط قوة الآخرين، وتلافي مكامن الضعف لديهم.

لذلك يشير القرآن الحكيم، إلى حقيقة أنّ التنوع ينبغي أن يكون دافعًا للتعارف بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[سورة الحجرات، آية: ١٣].

بَيْدَ أنّ الاهتمام بالتعارف بين الأقوام والأمم، إنّما ينبثق من أرضية الاحترام المتبادل، أما حينما تستهين مجموعة بالآخرين، وتنظر إليهم نظرة احتقار وازدراء، ويمتلكها تجاههم الشعور بالتعالي، فإنّها لن تتجه لاستكشاف ما لدى الآخرين من نقاط القوة، وصفات الخير، لذلك فإنّ القرآن الحكيم يمهّد للدعوة إلى التعارف، بإدانة نظرة السّخرية والازدراء بين الأمم والأقوام، حيث جاء في سياق الآيات الكريمة التي سبقت تلك الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[سورة الحجرات، آية: ١١].

والكلام ليس عن سخرية شخص من شخص، وإن كان ذلك مرفوضًا ومدانًا، إلّا أنّ الحديث هنا يأتي في سياق العلاقة والتعامل بين المجاميع ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

ويلفت القرآن الحكيم الأنظار، إلى عدم الوقوف في تقويم الآخرين عند حدود المظاهر والأشكال، بل يجب البحث عن الصفات الفاضلة والسّمات الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

رابعًا: التنافس الإيجابي

من الطبيعي أن تسعى كلّ جماعة بشرية لتعزيز موقعها، وتأكيد ذاتها، أمام الجماعات الأخرى، ولكن ما هو الطريق والأسلوب المناسب لتحقيق هذا التعزيز والتأكيد؟

هناك منهجان وأسلوبان:

الأول: العمل على إضعاف الآخر، وتدمير نقاط قوته، وإعاقة تحركه وتقدّمه، وحينما ينهار الآخر، أو يضعف، يبقى ذلك الطرف بارزًا قويًّا في السّاحة، إذ لا توجد قوة أخرى تزاحمه، أو في مستوى مزاحمته.

الثاني: التركيز على تقوية الذات، وتنمية القدرات، لإحراز التقدم عمليًّا على الآخر.

والمنهج الأول هو أسلوب الصراع والنزاع، أما المنهج الثاني فهو طريق التنافس الإيجابي.

وكمثال بسيط على ذلك: لو تسابق شخصان في ميدان الجري، وأراد كلٌّ منهما أن يحرز التقدم بمسافة على صاحبه، فقد يعمل أحدهما لعرقلة الآخر، بحيث يتوقف عن جريه، فيصبح متقدمًا عليه، أو يترك منافسه ليجري بكلّ قوته، لكنه يضاعف جهده ليكون أكثر منه سرعة وجريًا.

إنّ أسلوب الصراع والنزاع يكلّف البشرية الكثير من الضحايا والخسائر، فهو يشغل كلّ جهة بالجهة الأخرى، وبدلًا من أن تنصب جهود كلٍّ من الطرفين في إعمار الأرض، وتقدم الحياة، تصرف في التحطيم المتقابل للمكاسب والإنجازات، وتهدر في المواجهة والصراع.

ونظرة واحدة إلى الأرقام الضخمة لنفقات التسلح بين القوى المختلفة في العالم، وإلى الخسائر المتبادلة في الحروب والمعارك، وبالمقارنة مع ما تعانيه مجتمعات إنسانية كثيرة من آلام ومعاناة الفقر والحاجة، تبرز لنا فظاعة هذا المنحى الخطير.

ونكتفي هنا بفقرة واحدة، وردت في التقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية، عام ١٩٩٤م، يقول التقرير: تعتبر الهند من أكثر الدول النامية التي تشتري أسلحة تقليدية، وهي أوصت على عشرين طائرة مقاتلة من نوع (ميغ) بسعر يوازي تعليم ١٥ مليون فتاة لا تذهبن إلى المدرسة!!، كما أوصت كوريا الجنوبية على ٢٨ صاروخًا أمريكيًّا بسعر يكفي لتلقيح ١٢٠ ألف طفل وإبعاد شبح

الأمراض المعدية عنهم.

إنّ آسيا الجنوبية تنفق ١٩ مليار دولار على التسلّح، بينما تنفق أفريقيا ٨ مليارات دولار على التسلح، في الوقت الذي يعيش فيه ٨٠٠ مليون شخص في حالة من الفقر المدقع في هاتين المنطقتين[١].

والقرآن الكريم يوجه البشرية إلى أن تستفيد من واقع التنوع في إذكاء روح المنافسة الإيجابية، بأن تسعى كلّ جهة لبناء ذاتها، وأن تثبت تفوقها وتقدّمها عبر ما تنجزه من أعمال الخير والصلاح، وما تحققه من عمارة للأرض وخدمة للحياة.

يقول تعالى:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[سورة المائدة، آية: ٤٨].

في تفسير هذه الآية الكريمة يقول السّيد المدرسي:

(إنّ القرآن الكريم أخذ يعالج مسألة الخلافات البشرية بصفة عامة هنا، بمناسبة الاختلاف القائم بين كتب السماء، وأتباع الديانات السماوية، وأجاب على هذا السؤال: لماذا يختلف الناس

(١) جريدة السفير اللبنانية ٢/ ٦/ ١٩٩٤م.

في ممارساتهم؟!

بإجابة واضحة نفصّلها في عدة نقاط:

أ. إنّ كلّ أمة تتميز بممارسات حياتية مادية ومعنوية خاصة، فاقتصاد كلّ أمة واجتماعياتها وسلوكياتها الفردية (وسائر ما تسمى بالشرعة) تختلف عن غيرها، كما أنّ لغتها وثقافتها وتطلعاتها (وسائر ما يسمى بالمنهاج) تختلف عن غيرها.

ب. إنّ هذا الاختلاف فطري نابع من خلقة البشر، وطبيعة اختلاف الحياة، وانعكاس هذا الاختلاف على كيان البشر وإلّا فإنّ الله قادر على أن يجعل البشر ـ كما الطيور والأسماك وما أشبه ـ أمة واحدة دون اختلاف يذكر فيما بينهم.

ج. والاختلاف نافع للحياة البشرية؛ لأنه يدعو إلى التنافس والتسارع إلى الخيرات، إذ كلّ طائفة تسعى من أجل معرفة أفضل بأنظمة الحياة، ووسائل أفضل لتسخير إمكاناتها بهدف تحقيق التقدم على الطوائف الأخرى، ولذلك نجد الحضارات الكبرى في التاريخ إنّما نشأت بسبب تصارع الطوائف مع بعضها، تصارعًا خفيًّا لا يدعو إلى التدمير داخل الأمة الواحدة.

د. إنّ هذا الاختلاف ينبغي ألّا يجعل عدوًّا رئيسًا يستهدف كلَّ فريق القضاء عليه بالقضاء على صاحبه أو بالجدليات

الكلامية، كلّا! بل ينبغي أن يترك الحكم على عاقبة الاختلاف ونهاية الصراع أن يكون لهذا أو لذاك، يترك ذلك إلى الله واليوم الآخر حتى لا توجه هذه الطاقة البناءة (طاقة الصراع والتنافس) إلى الدمار والهلاك، فيصبح هدف كلّ فريق القضاء على مكاسب الفريق الآخر، كلّا! بل ليكن هَمّ كلّ فريق الحصول على مكاسب أكبر من صاحبه في ميدان الحياة الرحيب الذي يسع الجميع دون تضايق.

إنّ حكمة الله في إيجاد الناس مختلفين هي اختبارهم في مدى القوى الذاتية، والإمكانات الطبيعية التي وفرها لهم؛ لكي يعلم أيّ الفريقين أكثر معرفة وعلمًا بالحياة، وأفضل تسخيرًا لها، وبالتالي أكثر إيمانًا، وأفضل عملاً صالحًا)[1].

ومرة أخرى وفي سياق الحديث عن الخلاف مع اليهود والنصارى، يشير القرآن الحكيم إلى عبثية الجدال معهم ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾[سورة البقرة، آية: ١٤٥].

والبديل الصحيح عن الجدل العقيم، هو التنافس الإيجابي، والتسابق نحو الإنجازات الخيرة، لذلك يقول تعالى ـ وفي السياق ذاته ـ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[سورة البقرة، آية: ١٤٨].

(١) السيد محمد تقي المدرسي. من هدى القرآن، ج٢، ص٣٩٣، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

وتأكيدًا لهذا المنحى في التعامل مع واقع التنوع، يقول تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ * وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة الحج، آيات: ٦٧-٦٩].

فالآية الكريمة تعترف بواقع التنوع، فلكلّ أمة طريقتها في التعبّد والتدين ﴿مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ثم تنهى عن الانشغال بالنزاع والجدال في تلك الخلافات الدينية العبادية ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ لكن ذلك لا يمنع من الطرح الإيجابي، فالمؤمن يبشر بدينه وعقيدته، دون الدخول في متاهات الجدل والنزاع، وإنّما بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، ولعلّ الآية تشير إلى أنّ المقياس ليس الجدل الكلامي النظري وإنّما الإنجاز الفعلي العملي ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وتأكيدًا لمحورية الإنتاج والعمل، بين الجماعات المتنوعة، بدل إضاعة الجهد، والاهتمام بالنزاع والجدال، وردت آيات عديدة في القرآن الحكيم، تعتبر العمل هو المفصل والمحور، يقول تعالى:

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾[سورة البقرة، آية: ١٣٩].

والمؤمنون الواعون لا يسفّون بأنفسهم إلى مستوى تبادل السّباب والشتم، مع المخالفين لهم، بل يركزون على قضية العمل كحدٍّ فاصل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[سورة القصص، آية: ٥٥].

ويقول تعالى:

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[سورة الشورى، آية: ١٥]، أي لا داعي للاحتجاج والنقاش، أو لا خصومة بيننا وبينكم.

وأساسًا فإنّ الحياة الدنيا ميدان لتفجير طاقات الإنسان، وتفعيل كفاءاته، والتقدم والفوز هو للأكثر كفاءة، والأحسن عملًا وإنتاجًا ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[سورة الملك، آية: ٢].

الفصل الثالث

التعايش.. منهج وتطبيق

- مدخل
- مواطنون وأديان مختلفة.
- أمة واحدة وقوميات متعددة.
- أصول ثابتة وتنوع في المذاهب.

مدخل

يعيش أبناء البشرية في هذه الحياة الدنيا، على تنوعهم وتمايزهم، ضمن حياة مشتركة، متداخلة المصالح والمنافع، ولا يمكن لأيِّ نوعٍ من أنواع البشر أن يختاروا لأنفسهم زاوية من زوايا الدنيا، فيقبعونَ فيها بعيدًا عن الآخرين، دون أيّ تأثر أو تأثير.

ثم إنّ هناك تنوعًا داخل كلّ نوع، فلو اختار السود أو البيض مثلًا، جهة من الكرة الأرضية، فإنّهم ليسوا جميعًا متطابقين في كلّ شيء، بل يعيشون دوائر التنوع المختلفة داخلهم، قوميًّا أو قبليًّا أو دينيًّا أو سياسيًّا.. وكذلك الحال لو انحاز المسلمون أو المسيحيون مثلًا، إلى ركن من الأرض، فإنّهم يشتملون على تعددية في الأعراق، والقوميات والمذاهب والتوجهات.. وذلك يعني أنْ تستمر حالة الفرز والانعزال حتى تصل إلى أضيق الدوائر، مما يتنافى مع طبيعة الحياة والبشر.

ومع التطور العلمي والتكنولوجي الهائل في حياة الإنسان،

فإنّ المسافات قد ألغيت، والحدود قد تساقطت، بين أبناء البشر، وأصبحت الدنيا قرية واحدة، مما يفرض على الناس أن يتعايشوا مع بعضهم، مهما تنوعت انتماءاتهم، وتعددت هوياتهم، من أجل مصالحهم المشتركة.

وخيرات الكون، وإمكانات الحياة، وضعها الله سبحانه تحت تصرف الجميع، فهي لجميع الناس، لا يحقّ لأحدٍ أن يستأثر بها على أحد، والانتماء والتوجه لا يبرّر الاستئثار ولا يسوّغ الحرمان.

لذلك يؤكد القرآن الحكيم، أنّ عطاء الله ونعمه في هذه الحياة، مبذولة لجميع البشر، يمدّ بها المؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، فعطاؤه سبحانه ليس محظورًا على أحد، يقول تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[سورة الإسراء، آية: ٢٠].

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[سورة الرحمن، آية: ١٠].

فالأرض وخيراتها للأنام جميعًا، على اختلاف أعراقهم وأديانهم وتوجهاتهم.

جاء في الحديث عن الإمام محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام: «صلاح شأن الناس التعايش»[1].

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج٧١، ص ١٦٧، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٣م ـ بيروت.

ودعـا رجل بحضرة الإمام علي بن الحسـين زيـن العابدين ﷺ قائـلًا: اللهـم أغننـي عن خلقك. فـردّ عليه زيـن العابديـن: «ليـس هـكـذا، إنّما الـنـاس بالنـاس، ولكـن قل: اللـهم أغنني عن شـرار خلقك»[1].

فالناس بالناس، ولا تصلح شـؤونهم إلّا بتعايشـهم مع بعضهم بعضًـا، مهما تنوعـت انتماءاتهـم وتوجهاتهم، ولكـن كيف يتحقق التعايش مع التنوع؟

هناك شرطان أساسيان، يمكن بهما تجاوز ما تفرزه حالة التنوع غالبًا من إشكاليات في التعاطي والتعايش:

أولًا: ضمان الحقوق والمصالح للأطراف المختلفة

فإذا ما شعر طرف من الأطراف بانتهاك حقوقه، أو التعدّي على مصالحـه، من قبل طرف آخر فلن تتوفـر حينئذٍ أجواء التعايش، وما يحصـل غالبًا من تنازع وصراع بين الجهات المتنوعة في المجتمع، إنّما هو بسـبب طغيان وتعدّي فئـة على حقوق ومصالح فئة أخرى، والفئـة المضطهدة حتى وإن كانت أقلية أو ضعيفة، إلّا أنّ شـعورها بالغبـن والظلامة، يمنعها من التفاعـل الإيجابي مع بقية الفئات، بل يدفعها إلى التفكير في الثأر والانتقام.

لذلك يشـدد القرآن الحكيم، على لزوم رعاية حقوق الآخرين،

(١) المصدر السابق. ج٧٥، ص١٣٥.

وعـدم الاعتداء على المخالفيـن، فالمؤمنون يحقّ لهـم أن يدافعوا عن أنفسـهم، حينما يواجههم الكافرون، ولكن عليهم أن يقفوا عند حدود الدفاع ولا يتجاوزون ذلك اعتداءً: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّـهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[سورة البقرة، آية: ١٩٠].

وفـي آية أخـرى يقـول تعالـى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾[سورة المائدة، آية: ٢].

إنّ وجـود حساسـية مـا، عند فئة تجـاه فئة أخـرى، لا يصح أن يؤثـر علـى الالتـزام بالعـدل فـي الحقوق، يقـول تعالـى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّـهِ شُـهَدَاءَ بِالْقِسْـطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[سـورة المائدة، آية: ٨]، ولا يجوز للإنسـان المؤمن أن ينحاز في موقفه على حسـاب الحقّ والعدل، لصالح انتمائه أو انشـداده العاطفي، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْـطِ شُـهَدَاءَ لِلَّـهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْـنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّـهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[سورة النساء، آية: ١٣٥].

ثانيًا: الاحترام المتبادل

فالإنسـانية جوهـر واحد مشـترك عند أبنـاء البشـر، فعليهم أن يحترمـوا إنسـانيتهم باحترام بعضهـم بعضًا، وحتـى إذا ما اختلفت

اتجاهاتهم لكنّهم نظراء ومتساوون في إنسانيتهم، وكما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «فإنّهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[1].

ويشجع القرآن الحكيم المسلمين على حسن التعامل مع المخالفين لهم في الدين، وأن يتواصلوا معهم، على أساس الإحسان والاحترام، وحفظ الحقوق، ما داموا مسالمين لم يبدؤوا المسلمين بعدوان، يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[سورة الممتحنة، آية: ٨].

وما الأحلاف والمعاهدات السلمية، التي عقدها رسول الله ﷺ مع قبائل اليهود، وتجمعات النصارى، وفئات المشركين من العرب، إلّا نموذج لما يريده الإسلام من قيام علاقات إنسانية إيجابية، بين المختلفين من أجل تعايش مشترك.

ويسجل التاريخ للمسلمين حرصهم على الالتزام بتلك المعاهدات، وتقيدهم بحسن التعامل والوفاء بالعهود، طبقًا لتعاليم الإسلام الموجبة، لذلك يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[سورة الإسراء، آية: ٣٤]، ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[سورة البقرة، آية: ١٧٧].

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، كتاب رقم ٥٣.

وكما خلق الله جميع الناس، وأسبغ نعمه وفضله عليهم جميعًا، فإنّ هديه ورسالته موجهة إلى الجميع أيضًا، فالإسلام ليس دينًا، رقّيًا ولا قوميًّا ولا قبليًّا، بل كما خاطب الله نبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سورة سبإ، آية: ٢٨]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[سورة الأعراف، آية: ١٥٨].

وحتى الذين يرفضون استلام رسالة الله إليهم، ولا يتوفقون لدخول الإسلام كدين يدينون به، إلّا أنّهم لا يحرمون أبدًا من التفيؤ بظلال الإسلام والعيش في رحاب دولته ونظامه.

فرسالة الإسلام ونبي الإسلام خير وعطاء ورحمة للبشرية جمعاء، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنبياء، آية: ١٠٧].

وبعد أن استكشفنا في الفصل السابق رؤية الإسلام للتنوع والتمايز في المجتمع البشري، نريد في هذا الفصل أن نسجّل بعض اللقطات، لواقع التنوع في المجتمع الإسلامي وفي ظلّ الحضارة الإسلامية.

مواطنون وأديان مختلفة

في السنة الأولى لتأسيس المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، وضع الرسول ﷺ دستورًا سياسيًّا تنظيميًّا، لإدارة المجتمع والدولة الإسلامية الناشئة، عرف بصحيفة المدينة، وقد تضمنت هذه الصحيفة الاعتراف بمواطنة غير المسلمين، وعضويتهم في تكوين المجتمع الجديد، وحددت الواجبات التي عليهم، والحقوق التي لهم، شأنهم في ذلك شأن بقية المواطنين المسلمين.

تقول إحدى فقرات تلك الصحيفة التي أملاها رسول الله ﷺ وأمضاها:

«وإنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم، وأنفسهم، إلّا من ظلم، أو أثم، فإنه لا يوتغ إلّا نفسه، وأهل بيته، وإنّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف...».

وتُعدّد الصحيفة سائر قبائل اليهود في نفس السياق ثم تضيف:

«وإنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنّ النصر للمظلوم، وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة...»[1].

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين معلّقًا على هذه الفقرات:

«إنّ هذا النص يدلّ على أنّ الإسلام يقبل فكرة تأسيس مجتمع سياسي متنوع في دولة واحدة، ونظام حكم واحد، على أساس الإسلام، يتمتع الجميع فيها بحقّ المواطنة الكاملة، ولا يشترط لإقامة الدولة أن تكون لمجتمع إسلامي نقيّ خالص...

وهذه العبارة (أمة مع المؤمنين) ذات دلالة عظيمة الأهمية، فإنّ الظاهر منها كونهم يشكلون أمة بالمعنى السياسي، وقوله: (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) يظهر عنصر التنوع في المجتمع، فيكون المجتمع الجديد أمة

(١) ابن هشام. السيرة النبوية، ج٢، ص١١٩ - ١٢٣.

واحـدة بالمعنى السياسـي، متنوعة الانتمـاء الديني؛ لأنّها تتشكّل من أمتين بالمعنى العقيدي»[١].

كمـا كتـب رسـول اللـه ﷺ كتابًـا لنصـارى نجـران، يؤكـد فيه حقوقهم الكاملة، في ظلّ الإسلام، ونصّه ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبانهم: أنّ لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، مـن بِيَعِهِمْ وصلواتهم، ورهبانيتهم، وجوار الله ورسـوله، لا يغيّر أسـقف من أسـقفيته، ولا راهب مـن رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغيّر حقّ من حقوقهم ولا سـلطانهم ولا شـيء مما كانوا عليه على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا مـا نصحوا واصطلحـوا فيما عليهم غيـر مثقلين بظلم ولا ظالمين»[٢].

ومبدأ التكافل الاجتماعي مضمون لكلّ أفراد المجتمع مع تنوع أديانهـم، وحدث مرة أن رأى أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أثناء خلافته، شـيخًا مكفوفًا يستجدي الناس، فقال الإمام مستنكرًا: مـا هـذا؟ قالوا: يـا أمير المؤمنيـن، نصرانـي. فقال أميـر المؤمنين:

(١) الشـيخ محمد مهدي شـمس الدين. في الاجتماع السياسي الإسلامي، ص ٢٩٠ ـ ٣٠٢، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ـ بيروت.

(٢) الشـيخ حسـين علي المنتظري. دراسـات في ولاية الفقيـه، ج٢، ص٧٥٢، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، الدار الإسلامية ـ بيروت.

استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه! أنفقوا عليه من بيت المال.

وقد ذكر هذا الحديث المحدِّث العاملي في كتابه ضمن باب تحت عنوان: (أنّ نفقة النصراني إذا كبر وعجز عن الكسب من بيت المال)[١].

وفي المجتمع الإسلامي كانت الفرصة متاحة لغير المسلم لتولي الوظائف والأعمال الإدارية الحكومية حيث إنّ (الرأي الفقهي المشهور عند أهل السنة هو مشروعية تولّي غير المسلم للوظائف في الدولة الإسلامية، وقد مورس ذلك في الدولة الأموية والعباسية وغيرهما، فتولّى رجال من اليهود والنصارى والمجوس وظائف إدارية ومالية، كان بعضها مهمًّا جدًّا في هيكلية الدولة الإسلامية، وقد صرّح أبو الحسن الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ) وأبو يعلي الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨هـ) في كتابيهما (الأحكام السلطانية) بجواز أن يتولى غير المسلم وزارة التنفيذ)[٢].

ويؤيّد هذا الرأي الشيخ محمد مهدي شمس الدين، من فقهاء الشيعة المعاصرين.

والقانون الإسلامي يحمي حقوق الجميع، مع تنوع أديانهم،

---

(١) محمد بن الحسن العاملي. وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٦٦، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، مؤسسة آل البيت ـ بيروت.

(٢) الشيخ محمد مهدي شمس الدين. نظام الحكم والإدارة في الإسلام، ص٤٩٢، الطبعة الثانية ١٩٩١م ـ بيروت.

ويسـجّل التاريخ بإكبار، كيف أنّ مواطنًـا يهوديًّا نازع أمير المؤمنين علـي بن أبي طالب عليه السلام فـي درع فحضر الإمام معـه مجلس القضاء عند شريح القاضي، وجلس في جنب خصمه اليهودي[١].

والآداب والأخلاق الإسلامية، التي يربّي الإسلام عليها أبناءه، سـارية المفعول فـي التعامل بين أفراد المجتمع، مـع تنوع أديانهم، وليست خاصّة بالمسلمين فيما بينهم.

روي أنّ غلامًـا لابـن عباس ذبح شـاة، فقال له ابـن عباس: إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي. ثم كرّرها حتى قال له الغلام: كم تقول هذا؟ فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يزل يوصينا بالجار، حتى خشينا أنه سـيورثه. فابن عباس، بنصّ هذا الخبر، كان مجاورًا ليهودي، وكان يهتـمّ بالإهداء إليه، كما يهتمّ بسـواه؛ مراعاة لحرمة الجوار، ومعنى هذا أنّ الإسـلام لا يفرّق في مكارم الأخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأيّ مخالف آخر، فالكلّ في نظره سواء[٢].

وحينما يطوي الموت صفحة أديب صابئي، على دين الصابئة، وهـو مواطن في الدولة الإسـلامية فـي بغداد يقال له (أبو إسـحاق الصابي) توفي سـنة ٣٨٤هـ فإنّ كبار الأدباء من المسـلمين ينظمون القصائد في رثائه، وتعداد مواهبه، والإطراء على كفاءته.

(١) محمد باقر المجلسـي. بحـار الأنوار، ج٤١، ص٥٦، الطبعـة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) حسـن القبانجي. شرح رسالة الحقوق، ج٢، ص٥٣٤، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، دار الأضواء.

فالشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي (توفي سنة ٤٠٦هـ) وهو أديب وعالم كبير يبكي ويرثي صديقه أبا إسحاق إبرهيم بن هلال الصابي بقصيدة تعدّ من أروع قصائده في الرثاء، ومطلعها:

أعلمت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي
جبل هوى لو خرّ في البحر اغتدى من وقعه متتابع الإزباد
ما كنت أعلم قبل حطّك في الثرى أنّ الثرى يعلو على الأطواد[1]

وأخوه الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، وهو أديب وفقيه متضلّع في العلم (توفي ٤٣٦هـ)، أيضًا يرثي أبا إسحاق الصابي في قصيدة رائعة مطلعها:

ما كان يومك يا أبا إسحاق إلّا وداعي للمنى وفراقي

ونجد في تشريعات الإسلام وآدابه، ما يكرّس حالة الانسجام والتعايش بين المواطنين المتنوعين دينيًّا، فالتمايز الديني لا يؤثر في التكافل الاجتماعي والاحترام المتبادل.

فالفقير والمحتاج يستحقان المساعدة من المجتمع، دون النظر لدينه وعقيدته، حيث تحلّ الصدقة أيضًا على فاسق وكافر من يهودي أو نصراني أو مجوسي ذمّي أو حربي؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[سورة الانسان،

(١) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، ج ٩، ص ٢٢٢، طبعة ١٩٨٦م دار التعارف ـ بيروت.

آية: ٨]، ومعلوم أنّ الأسير حربي[١].

والتمايز الديني لا يمنع المشاركة في تحصيل المكاسب، والاستفادة من فرص التنمية والإنتاج، فمثلًا من بادر لأرضٍ مهملة غير مملوكة فأحياها بجهده ونشاطه، ببناء أو زرع أو ما أشبه من طرق الاستفادة من الأرض، فإنه يتملّكها بإحيائها.

(يجوز لكلّ أحدٍ إحياء الموات بالأصل، والظاهر أنّه يملك به من دون فرق بين كون المحيي مسلمًا أو كافرًا)[٢].

ولا يشترط عند الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) كون المحيي مسلمًا، فلا فرق بين المسلم والذمّي في الإحياء، لعموم قول النبي ﷺ: «من أحيا أرضًا ميتة فهي له»؛ ولأنّ الإحياء أحد أسباب التمليك، فاشترك فيه المسلم والذمّي كسائر أسباب الملكية[٣].

وقد سجل الباحث الألماني (آدم متز) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بازل في سويسرا (توفي ١٩١٧م) صورًا رائعة عن واقع التنوع الديني في حياة المسلمين، ضمن كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) نلتقط منها بعض الجوانب:

(١) الدكتور وهبه الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٢، ص ٩٢٠، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م، دار الفكر ـ دمشق.

(٢) السيد محمد الروحاني، منهاج الصالحين، المعاملات، كتاب إحياء الموات، مسألة ٦٧٣، الطبعة الثانية، دار الزهراء ـ بيروت.

(٣) الزحيلي، الفقه الإسلامي، ج ٥، ص ٥٥٩.

يتحدث المؤرخ الجغرافي شمس الدين المقدسي (توفي ٣٨٠هـ) عن وضع المجوس في بلد إسلامي هو شيراز فيقول:

إنه لم يَرَ فيها على مجوسي غيارًا يميّزه، وإنّ الأسواق تزيّن في أعياد الكفار، وفي عام ٣٧١ هـ ـ ٩٨١م مات أحد كبار الصوفية فمشى في جنازته المسلمون واليهود والنصارى[١].

ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يُغلق دون أهل الذمّة أيّ باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخًا في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجارًا وأصحاب ضياع وأطباء، بل إنّ أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلًا يهودًا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة[٢].

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم، ويأمر بصيانتهم، وفي حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب يسير فيها

---

(١) / آدم متز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص٨٥، الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي.

(٢) المصدر السابق. ص ٨٦.

النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون في الأبواق[١].

ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى، بحيث لا يتعدّونها، وإن آثر أهل كلّ دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كلّ أجزاء بغداد حتى كادت لا تخلو منها ناحية[٢].

ولما كان الشرع الإسلامي خاصًّا بالمسلمين، فقد خلّت الدولة الاسلامية بين أهل الملل الأخرى، وبين محاكمهم الخاصة بهم، والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنه كانت محاكم كنسيّة، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا، وقد كتبوا كثيرًا من كتب القانون، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل إلى جانب ذلك مسائل الميراث، وأكثر المنازعات التي تخصّ المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به[٣].

ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصّرفين غير المسلمين، في الدولة الإسلامية، فكأنّ

(١) المصدر السابق. ص ٨٨.
(٢) المصدر السابق. ٩٣.
(٣) المصدر السابق. ٩٣.

النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام، والشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة..

وقد قُلّد ديوان جيش المسلمين لرجل نصراني مرتين في أثناء القرن الثالث..

وكان المتصرفون النصارى واليهود يقسمون اليمين، شأنهم شأن المسلمين، وقد جاءت في كتاب ديوان الإنشاء الذي ألّف عام ٨٤٠هـ-١٤٣٦م صيغة اليمين الذي كان يقسمه اليهود في ذلك العهد، وذكر أيضًا أنّ أول من استحدث هذه الإيمان لأهل اليهودية الفضل بن الربيع وزير الرشيد[١].

(١) المصدر السابق. ص ١٠٥-١٠٦.

أمة واحدة وقوميات متعددة

اصطفى الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ العربي، وابن أكرم أسرة عربية، ليكون خاتم الأنبياء، وليحمل آخر الرسالات الإلهية للبشر، وهي الإسلام. وشاءت حكمته تعالى أن تكون اللغة العربية، هي لسان هذه الرسالة ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[سورة الشعراء، آيات: ١٩٣-١٩٥] فانبثق الإسلام في جزيرة العرب، وكان المجتمع العربي هو بيئة انطلاقه ومصدر انتشاره.

لكن ذلك كلّه لا يعني انحصار الإسلام في العرب، بل هو رسالة الله للبشرية جمعاء، ودينه الشامل لبني الإنسان إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سورة سبإ، آية: ٢٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنبياء، آية: ١٠٧].

لـذا كانت قيم الإسـلام ومفاهيمـه وتعاليمه، ذات أفق إنسـاني عالمي، تستوعب كلّ القوميات والأعراق والشعوب.

ومن بداية الإسـلام كانت الصفوة التي سـبقت إلى الإيمان به، وجاهـدت وناضلـت من أجله، تضـم عناصر من أعـراق وقوميات مختلفـة، فـكان ذلك نواة وأرضيـة، لبناء المجتمع الإسـلامي على أساس من التنوع العرقي والقومي.

فمـن بين الأسـماء اللامعة في بناء صرح الإسـلام الأول، نرى سـلمان الفارسـي، وصهيب الرومـي، وبلال الحبشـي، إلى جانب أوائل الصحابة العرب، من رجالات قريش وفتيان يثرب.

من فارس:

وكان لسـلمان الفارسـي دور هام في التخطيـط لحماية الدولة الإسلامية (المدينة المنورة) من الهجوم الكاسح، الذي كان تحالف المشركين واليهود، ينوي شنّه للقضاء على القوة الإسلامية الناشئة، واجتياح مركز الإسلام.

كان جيـش الأحـزاب المتحالفـة، قوامـه حوالي عشـرة آلاف مقاتـل، بينمـا عـدد المقاتلين المسـلمين، فـي حدود ثلاثـة آلاف، والمسـلمون فـي موقـف دفاع عـن مدينتهـم، بينما المشـركون في وضع هجومي، قد استعدوا له بشكل كبير.

ولـو تمكنـت قواتهـم مـن اجتيـاح المدينـة، لعرقلـت حركـة

الإسلام، وأجهضت قيام دولته آنذاك.

وجمع الرسول ﷺ أصحابه، ليستشيرهم في خطورة الموقف، وهنا قدّم سلمان الفارسي اقتراحه، من وحي تجارب قومه الفرس، قال: (يا رسول الله، نحفر خندقًا يكون بيننا وبينهم حجابًا، فلا يمكنهم أن يأتونا من كلّ وجه، فإنا كنّا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا، نحفر الخنادق فيكون الحرب من مواضع معروفة)[١].

وقبل رسول الله ﷺ والمسلمون الخطة، وشرعوا في حفر الخندق حول المدينة. وفشلت خطة الأعداء.

وينقل المؤرخ الواقدي (محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧هـ) ما يدلّ على مكانة سلمان الفارسي المميزة بين المسلمين آنذاك فيقول:

وتنافس الناس يومئذٍ في سلمان الفارسي، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وكان قويًّا عارفًا بحفر الخنادق. وقالت الأنصار: هو منّا ونحن أحقّ به! فبلغ رسول الله ﷺ قولهم، فقال: سلمان منّا أهل البيت. ولقد كان يومئذٍ يعمل عمل عشرة رجال[٢].

---

(١) الشيخ جعفر السبحاني. سيرة سيد المرسلين، ج٢، ص٢٥١، دار البيان العربي ـ بيروت، ١٩٩٢.

(٢) الواقدي. (كتاب المغازي)، ج٢، ص٤٤٦، الطبعة الثالثة ١٩٨٩، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

وأصبح سلمان فيما بعد واليًا على المدائن عاصمة الأكاسرة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب.

ومن الحبشة:

يقول عن نفسه: (إنّما أنا حبشي.. كنت بالأمس عبدًا).

لكنّ بلال بن رباح الحبشي، أخذ موقعًا خالدًا، في ذاكرة التاريخ الإسلامي، بصموده على الإسلام، رغم ما تعرض له من تعذيب وتنكيل، وبالدور المميز الذي منحه له رسول الله ﷺ حيث أصبح المؤذن الرسمي للصلاة بعد تشريع الأذان، وكم كان صعبًا على رجال قريش، أن يروا بلال العبد الأسود الحبشي، وهو يصعد على الكعبة ليؤذن بعد فتح مكة! حتى قال عتاب بن أسيد- وكان لم يسلم بعد آنذاك -: لقد أكرم الله أسيدًا ألّا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه!!

ولكنها عالمية الإسلام وإنسانيته التي لا تفرق بين الناس على أساس أعراقهم وقومياتهم.

يقول الأستاذ خالد محمد خالد:

من كلّ عشرة مسلمين، منذ بدأ الإسلام إلى اليوم، وإلى ما شاء الله، سنلتقي بسبعة ـ على الأقلّ ـ يعرفون بلالًا.. أي إنّ هناك مئات الملايين من البشر، عبر القرون والأجيال عرفوا بلالًا، وحفظوا اسمه، وعرفوا دوره، تمامًا

كما عرفوا أعظم خليفتين في الإسلام: أبا بكر وعمر.

وإنك لتسأل الطفل الذي لا يزال يحبو في سنوات دراسته الأولى في مصر، أو باكستان، أو الملايو، أو الصين.. وفي الأمريكيتين، وأوروبا، وروسيا.. وفي العراق، وسوريا، وتركيا، وإيران، والسودان.. في تونس، والجزائر، والمغرب.. وفي أعماق أفريقيا، وفوق هضاب آسيا.. في كلّ بقعة من الأرض يقطنها مسلمون تستطيع أن تسأل أيّ طفل مسلم: من بلال يا غلام؟

فيجيبك: إنه مؤذن الرسول.. وإنه العبد الذي كان سيّده يعذّبه بالحجارة المستعرة ليرده عن دينه فيقول: أحد.. أحد..[1].

ومن الروم:

تربى صغيرًا ونشأ في وسط الروم؛ لأنّهم سَبَوْهُ صغيرًا مع آخرين من عائلته، في إحدى غاراتهم، على منطقة (الأبلة) من نواحي الشام، فأصبح رومانيًّا بلغته ولهجته ونشأته، ثم بيع صهيب الرومي، عبر تجار الرقيق، وانتهى به المشوار إلى مكة حيث اشتراه أحد تجارها.

(١) خالد محمد خالد. رجال حول الرسول، ص١١٧، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٨م.

ولذكائه ومهارته التجارية، أعتقه سيده، وأتاح له فرص العمل التجاري، بالشراكة معه.

وهكذا تكونت له ثروة عظيمة، وهداه الله تعالى إلى الإسلام، في فترة محنة الإسلام في مكة، رغم قساوة الظروف، وشدة الأوضاع، على المسلمين الأوائل..

وحينما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، بادر صهيب للالتحاق به، لكن عتاة قريش اعترضوا طريقه، قائلين: أتيتنا صعلوكًا فقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت بيننا ما بلغت، والآن تنطلق بنفسك وبمالك!!

ولم يفسحوا له المجال للهجرة، إلّا بالتنازل لهم عن كلّ ماله وثروته، فلم يتردد في ذلك، والتحق برسول الله ﷺ الذي استقبله بقوله: (ربح البيع أبا يحيى)[١].

وأصبحت لصهيب الرومي مكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي، حتى إنّ الخليفة عمر بن الخطاب عند وفاته، أوصى أن يصلي عليه صهيب، وأن يصلي بالناس إلى أن يجتمع المسلمون على إمام[٢].

وهكذا شارك عناصر من أعراق وقوميات مختلفة، في بناء

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣، ص٤٥١، دار الجيل ـ بيروت ١٩٩٢م.

المجتمع الإسلامي، وإقامة صرح دولته، وروي عن رسول الله ﷺ قوله: «السّباق أربعة: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق الفرس»[1].

إنّ قيم الإسلام وتعاليمه الإنسانية العالمية، هي التي اجتذبت هذه العناصر المختلفة الأعراق، وصهرتهم في بوتقة إيمانية واحدة، وشجعت بروز الكفاءات، وأن يأخذ الإنسان موقعه، ويمارس دوره، بكفاءته وإيمانه، دون النظر إلى عرقه أو لغته أو لونه.

بالطبع ما كان ذلك ليتم بيسر وسهولة، في تلك الأجواء التي كانت محكومة بالعصبية القبلية، والانتماءات العرقية، ولكن مفاهيم الإسلام، ومواقف الرسول القائد ﷺ التوجيهية الإرشادية، صنعت جوًّا جديدًا، وأشاعت ثقافة جديدة.

روى الحافظ ابن عساكر قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي.

فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي)، فما بال هذا وهذا؟ (مشيرًا إلى غير العرب من الجالسين).

فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فأخذ بتلابيه، ثم أتى النبي ﷺ فاخبره بمقاله. فقام النبي ﷺ مغضبًا، يجرّ رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم قائلًا: «يا أيّها

(١) المصدر السابق.

النـاس، إنّ الرّب واحد، وإن الدين واحد، وليسـت العربية بأحدكم من أبٍ ولا أمّ، وإنّما هي اللسان، فمن تكلّم العربية فهو عربي»[١].

وعـن جابر بن عبد اللـه الانصاري قال: خطبنا رسـول الله ﷺ في أوسـط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: «يا أيّها الناس، إنّ ربكم واحـد، وإنّ أباكـم واحـد، ألا لا فضـل لعربـي علـى عجمـي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسـود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقـوى، إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فليبـلّغ الشاهد الغائب»[٢].

الإسلام يحتضن الشعوب والقوميات:

واتسـعت رقعة الإسـلام البشرية، لتسـتوعب مختلف الأعراق والقوميات، فأصبحت الأمة الإسلامية متكونة من أعراق وقوميات مختلفة، تعيش في ظلّ قيم واحدة، وتتعاون في بناء حضارة إنسانية راقية.

فدخل في الإسـلام: الـروم والفرس والترك والهنـود والزنوج والبربر والأكراد، ومن سائر أجناس البشر.

وقـد أسـهمت مختلـف الشـعوب والقوميـات في بنـاء صرح الحضارة الإسلامية، فلو تصفحنا سجل أعلام الإسلام، وشخصياته

(١) محمد الغزالي. حقيقة القومية العربية، ص٢٢، دار البيان ـ الكويت.
(٢) محمدي الري شـهري. ميزان الحكمـة، ج١٠، ص٦٢٩، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، مكتب الإعلام الإسلامي.

البارزة، لوجدناها من مختلف البقاع والقوميات والأجناس، كالأفغاني، والزمخشري، والبخاري، والسمرقندي، والبغدادي، والحلبي، والشيرازي، والقلقشندي، والأصفهاني، والقيرواني، والقرطبي ...

في سنة ١٩٩٥م نشر الباحث الإنجليزي فيليب مانسل، كتابًا تحدّث فيه عن جانب من تاريخ الدولة الإسلامية العثمانية، وعنوان الكتاب (القسطنطينية مدينة رغبات العالم) (١٤٥٣-١٩٢٤م) في فصول الكتاب، يذكرنا المؤلف كثيرًا، بأنّ القسطنطينية كانت دائمًا مدينة ذات طابع عالمي، في ظلّ الحكم العثماني، فقد اشتملت الإمبراطورية في ذروة مجدها، على ٧٢ قومية ونصف القومية (الغجر كانوا معتبرين نصف قومية)، وفي العام ١٨٧٦م كان في المدينة ٤٩ صحيفة تصدر بإحدى عشرة لغة، بينها التركية واليونانية والعربية والإنجليزية والفرنسية[١].

ويشير أحد الباحثين إلى أنّ الأمة الإسلامية، تتألف الآن من ١٩٠ إثنيه قومية، يتحدثون بمئات اللغات واللهجات الخاصة[٢].

شرعية اللغات:

صحيح أنّ اللغة العربية هي لغة القرآن، الذي أنزله الله (بلسان

(١) سوزانا طربوش. مقال في جريدة الحياة لندن الصادرة بتاريخ ١٦/ ١١/ ١٩٩٥م.
(٢) محمد السماك، هل الإسلام هو الهدف، دراسة في مجلة الوعي الإسلامي، الكويت عدد ٣٣٨ الصادرة في شوال ١٤١٤هـ.

عربي مبين) وأنّه يستحب للإنسان المسلم من أيّ قومية كان، أن يتعلم اللغة العربية، ليكون أقدر على فهم القرآن، وإدراك معانيه، وتذوق بيانه، ولتكون هناك لغة موحدة يتخاطب من خلالها المسلمون.

لكن ذلك لا يعني وجود أيّ تحفّظ على سائر اللغات، فالإنسان حرٌّ في ظلّ الإسلام، في استخدام لغته أو أيّ لغة يريد.

ومن الناحية الفقهية، فإنّ الشرع يمضي العقود والاتفاقيات بأيّ لغة كانت.

أما العبادات كالصلاة، فلأنّها توقيفية، لذلك اشترط الفقهاء أداءها بالألفاظ العربية، لكن أبا حنيفة إمام المذهب الحنفي أجاز تكبيرة الإحرام في الصلاة بغير العربية، وكذلك الشافعية يرون صحة التكبير بغير العربية لمن لا يحسنها[١]، وكذلك أجاز بعض الحنفية لعاجز عن قراءة الفاتحة في الصلاة بالعربية أن يقرأ الفاتحة بغير العربية[٢].

وكان أئمة الإسلام من أهل البيت عليهم السلام يجيدون لغات الشعوب الإسلامية المعاصرة لهم ويتخاطبون معهم بلغاتهم[٣].

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٦٣٤.
(٢) المصدر السابق. ص٦٥٥.
(٣) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٩٠.

التداخل الاجتماعي:

واجه رسـول الله ﷺ العصبيـة القومية والقبليـة، في العلاقات الاجتماعية، وشجع المسلمين على التداخل والاندماج فيما بينهم، بغضّ النظر عن أعراقهم أو قومياتهم أو قبائلهم.

وأرسـى الإسـلام قاعدة هامة، فـي موضوع الـزواج والنكاح، لتجاوز الحواجز القومية والقبلية، حيث حرص رسول الله ﷺ على تزويج جويبر، وكان من السّـود، على فتاة عربية عريقة النسـب، هي الدلفـاء بنـت زياد بن لبيـد، وقال النبـي لأبيها زياد: يا زيـاد، جويبر مؤمـن، والمؤمن كفو المؤمنة، والمسـلم كفو المسـلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه[١].

وعـن أبي عبـد الله جعفر الصادق عليه السلام: أنّ رسـول الله ﷺ زوّج المقـداد بـن الأسـود، ضباعة ابنـة الزبير بن عبـد المطـلـب، وإنّما زوّجه؛ لتتضـع المناكح، وليتأسوا برسول الله وليعلمـوا أنّ أكرمهم عند الله أتقاهم[٢].

ولقي هشـام بن الحكم بعض الخوارج فقال: يا هشام، ما تقول فـي العجم، يجوز أن يتزوجـوا في العرب؟ قال: نعم. قال: فالعرب يتزوجـوا من قريش؟ قال: نعم. قال: فقريش تزوج في بني هاشـم؟

(١) الحر العاملي، وسـائل الشيعة، ج٢٠، ص٦٨، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، مؤسسة آل البيت ـ بيروت.
(٢) المصدر السابق ص٦٩.

قال: نعم. قال: عمّن أخذت هذا؟ قال: عن جعفر بن محمد عليه السلام سمعته يقول: أتتكافأ دماؤكم ولا تتكافأ فروجكم)[1].

وروى جمع من المؤرخين والرواة أنّ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لما ولّيَ الخلافة، أرسل حريث بن جابر، واليًا على جانب من المشرق، فبعث إليه بابنتي يزدجرد بن شهريار ملك الفرس، فنحل شاه زنان إلى ولده الإمام الحسين، فولدت له الإمام زين العابدين عليه السلام، ونحل الأخرى إلى محمد بن أبي بكر، فولدت له القاسم الفقيه المشهور[2].

وكانت روابط المصاهرة، ووشائج التداخل العائلي، متوفرة بين المسلمين من مختلف الأعراق والقوميات.

عادات الشعوب وتقاليدها:

واحتفظ كلّ شعب من الشعوب الإسلامية بعاداته وتقاليده، التي لا تتنافى مع تعاليم الإسلام، ولا تخالف مفاهيمه.

فكان الفرس يحتفلون برأس السنة الشمسية، ويسمونه (عيد نوروز) أي اليوم الجديد، وأُتي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بهدية النيروز، فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، اليوم النيروز.

---

(١) المصدر السابق ص٧٠.

(٢) باقر شريف القرشي. حياة الإمام زين العابدين، ج٢٣، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الأضواء ـ بيروت.

فقال ﷺ: اصنعوا لنا كلّ يوم نيروزًا[١].

(وكانت العادة عامة في الاحتفال بعيد النيروز ـ وهو مبدأ السنة الشمسية ـ بتبادل الهدايا، فكان الخليفة في بغداد يفرّق على الناس أشياء، منها صور مصنوعة من عنبر، منها ورد أحمر مثلًا، وكان رسم ملوك السامانيين ببخارى، أن يخلعوا فيه على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية، وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس الكسوات والطعام)[٢].

قيادات من مختلف القوميات:

ففي المجال السياسي هناك شخصيات من مختلف القوميات، لعبت أدوارًا قيادية سياسية في الأمة، ففي العصر العباسي الأول، كان للبرامكة وهم من الفرس، دور كبير في تسيير دفة الحكم، وإدارة شؤون السلطة، فمن عهد السفاح أول الخلفاء العباسيين (١٣٢-١٣٦هـ) صعد نجم خالد بن برمك، حيث تقلد الوزارة، واستمر فيها خلال عهد المنصور العباسي، ثم تقلد الوزارة في عهد هارون الرشيد ولده يحيى بن خالد البرمكي، الذي كان له أربعة أولاد، هم: جعفر والفضل ومحمد وموسى، وكان لكلّ منهم دور وموقع مؤثر في السلطة، واستمرّ دور البرامكة السياسي إلى سنة ١٨٧هـ حيث غضب عليهم الرشيد وفتك بهم.

(١) محمدي الري شهري. ميزان الحكمة، ج٧، ص١٣٢.
(٢) آدم متز. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص٢٩٣.

وفي بداية عهد المأمون العباسي، كان للفضل بن سهل، وأخيه الحسن بن سهل، وهما من الفرس أيضًا، دور أساسي في قيادة الدولة، وسمي الفضل بن سهل ذا الرئاستين.

أما في عهد الخليفة المعتصم العباسي، فقد كان للأتراك نفوذ كبير في قيادة الجيش، وأمور السلطة، واستمر دورهم البارز من سنة ٢٣٢هـ إلى سنة ٣٢٤هـ.

وفي أواخر العصر العباسي الثاني، كان للسلاجقة من التركمان نفوذهم وسيطرتهم الغالبة، من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٦٥٦هـ.

وقد تولّى العثمانيون الأتراك القيادة السياسية للأمة الإسلامية، من سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٣٤٢هـ، أي حوالي أربعة قرون، وبسقوط حكمهم انتهت الخلافة الإسلامية وتبعثر شمل الأمة.

وعلى الصّعيد العلمي نبغت الكفاءات العلمية في الأمة، من مختلف القوميات، واحتلت مواقعها في قيادة حركة العلم والثقافة، حتى عنون العلامة ابن خلدون، الفصل الخامس والثلاثين من مقدمته المعروفة، بالعنوان التالي (في أنّ حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم) ومما جاء في هذا الفصل قوله:

من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملة الإسلامية، أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلّا في القليل النادر...

فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، والفارسي من بعده، والزجاج من بعدهم، وكلّهم عجم في أنسابهم، وإنّما ربوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمرَبَى، ومخالطة العرب، وصيرّوه قوانين وفنًّا لمن بعدهم، وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام، أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى، وكان علماء أصول الفقه كلّهم عجمًا كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسّرين، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وظهر مصداق قوله ﷺ: لو تعلّق العلم بأكناف السماء لناله قوم من فارس[1].

وقد يكون في كلام ابن خلدون شيء من المبالغة، لكن من الواضح الجليّ، أنّ الكثيرين من أئمة الفقه والحديث والعلوم المختلفة، هم من العجم، فالإمام أبو حنيفة إمام المذهب الحنفي فارسي النسب، والبخاري صاحب صحيح البخاري أعجمي، وكذلك الترمذي وابن ماجة والنسائي والسجستاني وغيرهم.

(١) عبد الرحمن ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون، ص٥٤٣، الطبعة الرابعة ١٩٧٨م.

أصول ثابتة وتنوع في المذاهب

يعتمد المسلمون في فهم أمور دينهم العقائدية والفقهية، على مصدرين أساسيين، هما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لكن وسيلة الفهم وأداة المعرفة، من هذين المصدرين هو إعمال العقل، واستخدام الفكر، مما يفتح باب الاجتهاد، ويفسح المجال أمام تعدد الآراء، واختلاف الاستنتاجات.

وقد حصل مثل هذا الاختلاف في الاستنتاج من النص الشرعي، على عهد رسول الله ﷺ ولم يعترض عليه ﷺ؛ لأنّ ذلك الأمر طبيعي الحدوث.

فحينما أمر الرسول المسلمين بالزحف على يهود بني قريظة، أمر مناديه أن ينادي في الناس: من كان سامعًا مطيعًا، فلا يصلِّين العصر، إلا في بني قريظة، وكان ذلك بعد دخول وقت الظهر.

(إنّ الصحابة الذين صدر إليهم الأمر، بأن لا يصلوا

العصر إلا في بني قريظة، قد انقسموا في فهم هذا الأمر النبوي إلى قسمين:

وذلك أنّ صلاة العصر حانت، وهم لا يزالون في الطريق إلى بني قريظة، فناقشوا الموضوع على ضوء الأمر النبوي، فرأت طائفة من الصحابة، أنه لا يمكن تأخير الصلاة عن وقتها، وأنه لذلك لا بُدّ من أدائها، قبل الوصول إلى بني قريظة، وقد فسرّت هذه الطائفة الأمر النبوي (بأن لا يصلّين أحد العصر إلا في بني قريظة) بأنه إنّما يعني الحضّ بتعجيل السير، إلى بني قريظة لا تأخير الصلاة عن وقتها.

وقد قامت هذه الطائفة بأداء صلاة العصر في وقتها، أثناء الطريق، وقبل الوصول إلى بني قريظة استنادًا إلى تفسيرهم الذي ذكرنا.

أما الطائفة الأخرى من الصحابة، فقد رأت أنه لا بُدّ من تنفيذ الأمر النبوي حرفيًّا، وأنه لذلك لا بُدّ من أداء صلاة العصر في بني قريظة، حتى وإن كان ذلك بعد غروب الشمس، الذي لم يبقَ معه وقت أساسي لصلاة العصر. وفعلًا فإنّ هذه الطائفة من الصحابة، لم تصل العصر ذلك اليوم إلا في بني قريظة، وكان ذلك بعد غروب الشمس، وهي إذ فعلت ذلك إنّما تعتقد أنّها قد امتثلت الأمر النبوي،

الذي ينصّ صراحة على ما فعلت.

وقد بلغ النبي ﷺ ما صنعت الطائفتان، فلم يعنّف أحدًا منهما، ولم يلمه على ما فعل، بل أقرّ الجميع، الذين صلوا العصر في الطريق في وقتها، والذين أخّروها وصلوها في بني قريظة، بعد غروب الشمس)[١].

وروى البهيقي أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه: عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم. فقالت طائفة من المسلمين: إنّ رسول الله لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا. وقالت طائفة: والله إنا لفي عزيمة رسول الله، وما علينا من إثم، فصلت طائفة إيمانًا واحتسابًا وتركت طائفة إيمانًا واحتسابًا ولم يعنّف رسول الله واحدًا من الفريقين.

وقد علق المحدّث السلفي المعاصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني على هذه الرواية في تخريجه لأحاديث (فقه السيرة) للشيخ محمد الغزالي بقوله: (حديث صحيح رواه البيهقي في دلائل النبوة عن حديث عبيد الله بن كعب، وحديث عائشة، وأخرجه عنها الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي)[٢].

(١) محمد أحمد باشميل. موسوعة الغزوات الكبرى، ج٤، بني قريظة، ص١٤٧، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٨٦.

(٢) محمد الغزالي. فقه السيرة، ص٣٣٦، الطبعة الثامنة ١٩٨٨م، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

وذكر الحادثة السيد محسن الأمين العاملي وعقّب عليها بما يلي: (أقول: كان مراده ﷺ أن يسرعوا إلى بني قريظة، فيدركوا صلاة العصر هناك، لا أن العصر لا تصح منهم إذا تأخروا لمانع، إلا في بني قريظة والذين لم يصلوا العصر، كأنّهم توهّموا ذلك فكانوا معذورين)[١].

وبالنسبة للسنة النبوية المطهرة، فهناك اختلاف في ضبط النصوص وقبولها، فقد يطّلع صحابي أو تابعي أو فقيه، على حديث نبوي، فيأخذ بمفاده، بينما لا يطّلع عليه الآخرون، وقد يختلف الموقف من أحد الرواة، بين من يوثقه فيعمل بحديثه وبين من يرى عدم وثاقته.

كما لا يستبعد تأثير الظروف الاجتماعية والسياسية، على تكون الآراء وتبنيها وانتشارها.

لكلّ ذلك وغيره، تنوعت المدارس الفكرية، والمذاهب الفقهية، في الأمة الإسلامية.

ففي مجال العقائد ظهرت المدرسة الجبرية، والقدرية، ومدرسة المعتزلة، والأشاعرة، والمرجئة والماتريدية..

وفي المجال الفقهي، كان هناك مدرسة أهل الحديث ومركزها الحجاز، ومدرسة أهل الرأي ومركزها العراق.

---

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١، ص٢٦٦، دار التعارف، بيروت ١٩٨٦م.

ثم تعددت المذاهب الفقهية، وتنوعت ضمن التوجهات المختلفة لعلماء الأمة، فهناك مذاهب أهل السنة، ومذاهب الشيعة، ومذاهب الخوارج.

فبذور التعددية المذهبية قد غرست مبكرًا في أرضية الأمة، والاختلاف الفكري بدأ باكرًا في حياة المسلمين.

بَيْدَ أنّ التنوع الفقهي والفكري، لم يكن ملازمًا للخلاف والفرقة، بل كان في مراحله الأولى، وفي فترات مشرقة من حياة الأمة، ميدانًا لتلاقح الأفكار، وإثراء الفكر، والفقه الإسلامي، وكان التعاطي والتعامل فيما بين الصحابة عند اختلافهم في المسائل، وفيما بين أئمة المذاهب، يتم بموضوعية وسعة صدر. فإما أن يخضع للرأي الآخر، ويتنازل عن رأيه حينما تتضح له الحجة والصواب، وإما أن يتمسك برأيه، مع تقديره لمخالفه، واحترامه لرأيه.

لذلك توفرت للمسلمين ثروة فكرية وفقهية واسعة، بسبب تعدد المدارس والتيارات الفقهية والفكرية.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

وإنّ هذا الاختلاف قد فتح القرائح، فاتجهت إلى تدوين علم الإسلام، مجتهدة متبعة من غير جمود، وتركت من بعد ذلك تركة مثرية من الدراسات الفقهية،

لا نكـون مغاليـن، ولا متجاوزيـن المعقـول، إذا قلنـا إنّها أعظم ثـروة فقهية في العالم الإنسـاني، ولعـلّ أعظم ثروة يدّعيهـا الأوربيون هو القانون الرومانـي، ولو وزن ما جاء عـن الرومان ما عدل عشـر معشـار مـا تركه الفقهـاء، من عيون الفقه ومسـائله، وإنّها لتشـمل من الحلـول الجزئية، والقواعد الكلية، ما يغني الإنسـانية إن بغت الخير لنفسها، واتجهت إلى ما ينفعها ويعلو بها[١].

كانـت العلاقة بيـن أئمـة وعلماء المذاهـب المختلفـة، علاقة تواصل علمـي، واحترام متبادل، فالإمام زيد بن علي بن الحسـين، الذي ينتسـب إليـه المذهب الزيـدي (كان له صـلات وثيقة بعلماء عصـره، فأخـذوا عنـه، فقـد اتصل بـه واصل بـن عطاء وأخـذ عنه، واتصـل به أبو حنيفة وأخذ عنـه، وكان يميل هذا إليه، ويتعصب له، ويقـول في خروجـه لقتال جنـد الأمويين: ضاهـى خروجه خروج رسول الله ﷺ يوم بدر)[٢].

والإمام أبـو حنيفة إمام المذهـب الحنفي (التقى بأئمة الشـيعة مـن ذرية علي، ولهم في قلبه منـزلة إكـرام، وانتفع منهم من غير أن يعرف عنه تشيّع لآل البيت، وإن عرفت منه محبة واضحة لهم، أخذ

(١) محمد أبو زهرة. تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٣٠٢، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٩م.
(٢) المصدر السابق. ص٤٥.

عن زيد بن علي، ومحمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، وعبد الله بن حسن بن حسن. ولم يعرف أنه كان تابعًا لهؤلاء أو لواحد منهم في تفكيره)[١].

(ويروى عن أبي حنيفة الإمام أنه قال: «قال لي أبو جعفر المنصور: يا أبا حنيفة، إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له من المسائل الشداد. فهيأت له أربعين مسألة»)، والتقى الإمامان بالحيرة في حضرة المنصور.

ويقول أبو حنيفة في هذا اللقاء: «أتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر الصادق بن محمد، ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور. فسلمت عليه وأومأ فجلست، ثم التفت إليَّ فقال: يا أبا حنيفة، ألقِ على أبي عبدالله من مسائلك، فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا ... فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعًا حتى أتيت على الأربعين مسألة وما أخلّ منها بمسألة»، ثم قال أبو حنيفة: «إنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس»)[٢].

والإمام مالك بن أنس إمام المذهب المالكي (كان يغشى مجلس الإمام الصادق جعفر بن محمد، وقد جاء في المدارك ما

(١) المصدر السابق. ص٣٦١.
(٢) المصدر السابق. ص٦٩٣.

نصّه: «لقد كنت آتي جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضرّ واصفرّ، وقد اختلفت إليه زمانًا، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلّيًا، وإما صائمًا، وإما يقرأ القرآن. وما رأيته قطّ يحدّث عن رسول الله ﷺ إلا على الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العبّاد الزّهاد الذين يخشون الله، وما رأيته قطّ إلا رأيته يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي ... وجعل يعددّ فضائله..»)[1].

إنّ التعدد والتنوع في المدارس الفكرية والفقهية، واختلاف آراء العلماء والفقهاء، هو نتيجة طبيعية لمبدأ الاجتهاد في معرفة مفاهيم الدين وأحكامه، وإذا كان الاجتهاد مطلوبًا، بل ومفروضًا، حيث يرى أغلب علماء الأمة، أنه فرض وواجب كفائي على المسلمين، في كلّ زمان ومكان، فإنّ نتائجه لا بُدّ وأن تكون مقبولة.

يقول أحد الباحثين:

إذا كان الاجتهاد فريضة إسلامية دائمة؛ لأنه أداة استنباط الأحكام الشرعية الجزئية، من مصادر الوحي الإلهي، والبلاغ القرآني، والبيان النبوي لهذا البلاغ، وعليه يتوقف بقاء الشريعة الإسلامية، خاتمة وخالدة، ومستجيبة أحكامها لمستجدات الزمان والمكان والمصالح والعادات والأعراف، وهو بعبارة السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ): (فرض

(١) المصدر السابق. ص٣٩٧.

من فروض الكفايات في كلّ عصر، وواجب على أهل كلّ زمـان أن يقوم به طائفة من كلّ قطر) فـإنّ فريضة الاجتهاد هذه لا تتأتى إلا مع التعددية والاختلاف في الاجتهاد...

وتعـدد المجتهديـن لا بُـدّ وأن يثمـر تعـدد وتنـوع واختـلاف الاجتهادات، التي يمكـن أن تتبلور في مذاهب ومدارس وتيارات.

فالاجتهاد سبب للتعددية، التي تعود فتصبح حافزة على تنمية الاجتهاد، وإذا كان اجتهاد المجتهد ملزمًا له هو ولمن قلّـده، وغير ملزم للمجتهد الآخـر، ولا للذين قلّدوه، فلقد غـدت هذه القاعـدة ـ من قواعد الفكر الإسـلامي ـ التقنين الأدقّ، والأوضح لمبدأ التعددية في الفكر الديني..[1].

وهكذا كان سـلوك الأئمة والفقهاء المصلحين في الأمة، قائمًا على أساس احترام التعددية والتنوع، في الآراء والمذاهب.. فالإمام جعفـر الصادق يأمر تلامذته عند إفتائهـم للناس، بألّا يتجاهلوا آراء المذاهب الأخرى، عندما يكون السائل أو المستفتي تابعًا لأحدها، فقد قال لتلميذه: ((أبان بن تغلب)، وهو من خواصّ تلامذته، وكان يجلس للإفتاء في المسـجد النبوي الشـريـف: «انظـر ما علمت أنه

(١) محمد عمارة. فريضة الاجتهاد تقنين للتعددية والاختلاف، مقال في جريدة الحياة ٢٧/ ١٠/ ١٤١٧هـ.

من قولهم فأخبرهم بذلك»)[١].

وإقـرارًا للتعددية وحماية لهـا، رفض الإمام مالك بن أنس إمام المذهـب المالكـي، فرض مذهبـه وآرائـه على جميع المسـلمين، وقد أراد الخليفة هارون الرشـيد، أن يجعل مـن كتاب الإمام مالك (الموطـأ) قانونًـا عامًّـا، ويعلّق نسـخة منـه بالكعبة، ليعلمـه الناس جميعًا ولكن الإمام مالك لم يرتضِ ذلك[٢].

الوجه الآخر

تلـك كانت بعض الومضات المشـرقة في تاريخنا الإسـلامي، حين يلتـزم المجتمع بقيم الإسـلام، ويطبق تعاليمه وآدابه، فتسـود حالة الإنسـجام والتعـاون والتعايـش بين التوجهـات والانتماءات المختلفة عرقيًّا أو دينيًّا أو مذهبيًّا.

لكـن المؤسـف أنّ هنـاك وجهًـا آخـر لتاريـخ الأمة يثيـر الألم والحسـرة؛ لمـا يعكـس من حـالات تعصّب وعـداء، أزهقـت فيها نفـوس، وهتكت حرمـات، وأضيعـت حقوق، بسـبب رفض حالة التنـوع، ومحاولـة فرض هيمنـة معينة، كانـت ترافقها فـي كثير من الأحيان أفكار وطروحات تبريرية خاطئة.

فقـد عانـى غير المسـلمين شـيئًا من الظلـم في بعـض الحالات

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. معجم رجال الحديث،/ ج١، ص١٤٩، الطبعة الرابعة ١٤١٠هـ.

(٢) محمد أبو زهرة. تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٤٣٠.

والفترات في التاريخ الإسلامي، كما وقع الاضطهاد على الموالي ـ غير العرب ـ من قبل بعض الحاكمين المسلمين، وكان اختلاف الرأي والمذهب، سببًا لمآسٍ واعتداءات فظيعة داخل المجتمع الاسلامي.

فلا يمكن الادّعاء بأنّ تاريخنا وتراثنا، كان متطابقًا بالكامل مع رؤية الإسلام، ومنهج التعايش الإنساني، فإلى جانب تلك اللقطات المشرقة، المنسجمة مع روح الإسلام ومنهجه، كانت هناك ـ مع الأسف ـ ممارسات عدوانية مؤلمة، تناقض سماحة الإسلام وعدله.

وكانت تحصل تلك الحالات، كلما ابتعد المجتمع عن منهج الله، بتسلط جهة ظالمة، أو بروز قوى جاهلة أو مغرضة، تنشر البغضاء والفتن بين الناس.

ومهمتنا الآن هي استجلاء قيم الإسلام الحقيقية، والاستفادة من الجانب التطبيقي الإيجابي، في تراثنا وتاريخنا حتى نتمكن من إصلاح واقعنا، ومواجهة التحديات الخطيرة التي تواجه مجتمعاتنا.

إنّ ما يشهده العالم الثالث من حروب وأزمات، وما تعانيه الشعوب النامية من تخلف ومشاكل، يرجع في الغالب، إلى أجواء التنازع السائدة بين الانتماءات والتوجهات المختلفة، وعدم الوصول إلى النظام الاجتماعي العادل، القائم على الاعتراف بالآخر، والقبول به، والتعايش معه، ومشاركته في بناء الحياة الحرة الكريمة.

خاتمة

الانتقال من زمن التعصّب إلى زمن التعايش... مسؤولية من؟

مـع وضوح رؤية الإسـلام فـي القبول بالآخـر، والاعتراف به، والتعايـش معه، حتـى وإن كان مغايرًا في الدين والمبدأ، ومع شـدة التحديـات والأخطار التي تحيط بالأمة الإسـلامية في هذا الزمان، ومـع أننا نعيش عصر الانفتاح والتقـدم العلمي، إلا أنّ داءًا مقيتًا، لا يزال ينخر في كيان أمتنا الإسلامية، فيقعد بها عن النهوض، ويكرّس تمزقها وتشرذمها، ويمنعها من التوحد واجتماع الشمل.

ذلـك الداء الخطير هـو التعصّب المذهبي، حيث تسـود أجواء الأمة تشـنجات طائفية مذهبية، فـي العديد من البلدان والبقاع، وقد قال رسـول الله ﷺ: «من كان في قلـبه حبة من خـردل من عصـبية، بعـثه الله يـوم القيـامة مع أعراب الجاهلية»[1]، وقال ﷺ: «ليس منّا

(١) محمـد بن يعقـوب الكليني. الأصول مـن الكافـي، ج٢، ص٣٠٨، الطبعة الثالثة، طهران ١٣٨٨هـ.

مـن دعا إلى عصبية، وليس منّـا من قاتل على عصبية، وليس منّا من مات على عصبية»[١].

إنّ مناطـق عديـدة مـن العالم الإسـلامي، يعيش أبناؤهـا تنوعًا مذهبيًّـا، لكنهـم يعجزون عـن التعايـش والتعاون والانسـجام فيما بينهـم، وهم أبنـاء دين واحد، ووطـن واحد، وقوميـة واحدة، فيقع بينهم الصـراع والتنافر، وتحدث حالات مـن الاضطهاد المذهبي، والتمييز الطائفي، فهل الاختلاف في المذهب مبرّر لذلك؟

إنّ المذاهب الإسـلامية على تعددها تسـتقي مـن ينبوع واحد، هو الكتاب والسنة، وتتفق على أصول واحدة مشتركة، هي الإيمان بالله والنبي محمد ﷺ وبالآخرة، ويتجه أبناؤها إلى قبلة واحدة، هي الكعبة المشـرفة، وكلّهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويحجون البيت الحرام، ويصومون شـهر رمضان، كما أنّهم ورثوا هذا التعدد المذهبي من أسـلافهم، ولم يخترعوه أو يبتدعوه في هذه العصور، والقرون المتأخرة.

فما هو مبرّر التنافر والصراع إذًا؟

أولًا: إنّه الجهل برؤية الإسلام وتعاليمه.

---

(١) الحافـظ أبـو داوود السجسـتاني. سـنن أبـي داوود، ج٢، كتـاب الأدب، باب في العصبيـة، حديـث ٥١٢١، الطبعـة الأولـى ١٩٨٨م، دار الجنان، مؤسسـة الكتب الثقافية ـ بيروت.

وثانيًا: الأخلاق السيئة التي تنشأ من الأنانية والمصلحية والتعصّب.

وثالثاً: جهود الأعداء الخارجيين والداخليين، التي تصبّ الزيت على نار التفرقة، وتزرع الفتن وتبث الاختلاف.

التعايش هو الخيار

حينما يكون الانتماء المذهبي للمواطنين المسلمين متنوعًا، فإنّ أمامهم أحد خيارات ثلاثة، للتعاطي مع هذا التنوع والتعدّد:

الخيار الأول: محاولة الفرض والإلزام، بأن يسعى أتباع كلّ مذهب لفرض مذهبهم على الآخرين، وإلزامهم بأخذه والتعبد به؛ لأنّ أتباع كلّ مذهب يعتقدون بأحقية مذهبهم، ويرون أنفسهم مكلّفين بنشره وتطبيقه.

وهذا الخيار مشكل من الناحية الشرعية؛ لأنّ المعتقد، وطريقة التعبّد، لا يصح فرضها بالإكراه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[سورة البقرة، آية: ٢٥٦]، بل يجب أن يكون عن قناعة، واندفاع ذاتي، كما أنّ الشرع لا يجيز للمسلم أن يفرض على الآخرين ما لا يعتقدونه، ويؤمنون به، فالله تعالى لم يُعْطِ لنبيّه ﷺ هذا الحقّ وإنّما قال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية، آية: ٢١ و٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ

تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس، آية: ٩٩].

ومن الناحية العملية، فإنّ كلّ تجارب فرض الأفكار والمعتقدات، هي تجارب فاشلة، حيث يتمسك الناس بأديانهم ومذاهبهم أكثر في حالة التحدّي والمواجهة، وواقع الشعوب الإسلامية في البلدان التي كانت تهيمن عليها الشيوعية أوضح شاهد على ذلك.

كما إنّ مثل هذه المحاولات حصلت في تاريخنا بعض الفترات، حيث حاولت بعض الجهات فرض رأيها أو مذهبها لأنّها تمثل الأكثرية، أو تمتلك القدرة والقوة، لكن تأثير تلك المحاولات كان وقتيًا ومحدودًا.

الخيار الثاني: حالة العداء والصراع: حيث يتحصن أتباع كلّ مذهب في خندق مذهبهم، ويعبئون أفرادهم تجاه المذهب الآخر، وتسود حالة التشنج والعداء، ويكون هناك قطيعة وتنافر، وتقوم الجهة المقتدرة باضطهاد الجهة الأخرى، التي ستعمل بدورها للدفاع عن نفسها، وللانتقام من الطرف الآخر.. وهكذا يدخل المجتمع في نفق الصراع الداخلي، والذي قد ينتهي إلى حرب أهلية.

وهنا يخسر الجميع، وتكون الفرصة مؤاتية للأعداء، أعداء الإسلام، وأعداء البلاد، لينفذوا من خلال هذا الصراع مخططاتهم ومؤامراتهم.

وما الحرب الأهلية السيئة الذكر في لبنان، والأحداث الطائفية الدامية التي تجري الآن في باكستان، إلّا نموذج لمثل هذا الخيار البغيض.

الخيار الثالث: هو التعايش بأن يعترف كلّ طرف للآخر بحقه في التمسّك بقناعاته ومعتقداته، وممارسة شعائره الدينية، والعمل وفق اجتهاداته المذهبية، ويتعامل الجميع كمواطنين متساويين في الحقوق والواجبات، متعاونين لتحقيق المصلحة العامة ومواجهة الأخطار المشتركة.

وهذا هو ما يأمر به الإسلام، وتدعو إليه تعاليمه السّمحاء، وهو منهج أئمة الإسلام، وأعلام المسلمين الواعين المخلصين.

وأيضًا هو ما يدعو إليه العقل والمنطق السليم، وتفرضه طبيعة الاشتراك في ظروف حياتية واحدة، وضمن وطن واحد، وكما يقول الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «صلاح شأن الناس التعايش»[1].

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٧١، ص١٦٧، طبعة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

مسؤولية من؟

كيف ترتقي مجتمعاتنا إلى مستوى التعايش الحضاري؟

وكيف نتسامى على عوامل الخلاف والتمزّق، وأسباب القطيعة والتنافر؟

وكيف يكون تنوعنا، وتعدّد انتماءاتنا، إثراءً لتجاربنا، وإنضاجًا لآرائنا وأفكارنا؟

وكيف تتحقق الوحدة الإسلامية الوطنية لكلّ مجتمع في بلاد المسلمين، وعلى مستوى الأمة جمعاء؟

إنّ المسؤولية تقع على عاتق الجميع، فكلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته، كما يقول الحديث النبوي الشريف.

وبالدرجة الأولى فإنّ الحاكمين في البلاد الإسلامية، يتحمّلون مسؤولية رئيسة في توحيد شعوبهم، وتوفير أجواء التعايش والانسجام فيما بينهم، على أساس الحقّ والعدل، ومنع أيّ تمييز قومي أو طائفي، فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «خير الولاة

من جمع المختلف، وشرّ الولاة من فرّق المـؤتلف»[١].

وعلماء الدين ينتظر منهم القيام بأهمّ دور في الدعوة إلى الوحدة والوئـام، وتحذير الناس من النعـرات القومية، والفتن الطائفية، ولا يجوز أبدًا أن يمارس عالم الدين دور إذكاء روح التعصّب المذهبي، بمبررات واهية زائفة، ذلك (أنّ الله سبحانه لم يُعْطِ أحدًا بفرقة خيرًا ممـن مضـى ولا ممن بقي)[٢] كما يقول أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ويقـول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «فلا تخاصموا الناس لدينكم، فإنّ المخاصمة ممرضة للقلب»[٣].

ورجال الفكر والإعلام، عليهم أن يوجّهوا أقلامهم وجهودهم، لإشـاعة روح التسـامح والتقـارب، ومحاربـة توجهـات التّشـدد والتطرّف، التي يغذّيها الأعداء، وينمّيها الجهل والغباء.

وأخيـرًا، فـإنّ كلّ مواطـن واعٍ، يجب أن يتحمّل مسـؤوليته في صنع الوحدة الوطنية الإسـلامية، بسـلوكه القويم، وتعامله السليم، مع سائر إخوانه المواطنين، فالصراع والتناحر يهدد مستقبل الوطن، ويضرّ بمصلحة الشعب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَـلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُـمْ وَاصْبِـرُوا إِنَّ اللَّـهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[سورة الأنفال، آية: ٤٦].

---

(١) السيد محمد الشيرازي. السـبيل إلى إنهاض المسلمين، ص٣١٢، الطبعة السابعة ١٩٩٤م، مؤسسة الفكر الإسلامي ـ بيروت.
(٢) الشريف الرضي. نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٦.
(٣) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٢، ص١٣٣.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأمين، السيد محسن. أعيان الشيعة ، دار التعارف ـ بيروت ١٩٨٦م.
- ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، الطبعة الرابعة، دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٨م.
- ابن هشام. السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٤م.
- السجستاني، الحافظ أبو داوود. سنن أبي داوود، الطبعة الأولى، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت.
- أبو زهرة، الشيخ محمد. تاريخ المذاهب الإسلامية، دار

الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٩م.

- باشـمييل، محمـد أحمـد. موسـوعة الغـزوات الكبـرى، المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٩٨٦م.
- بهجـت، أحمـد. بصمـة الأصابـع، مقـال منشـور فـي جريـدة الحيـاة الصـادرة فـي لنـدن، العـدد، ١٢٠١٤، ٢٤/ ٨/ ١٤١٦هـ.
- بيجوفيتـش، علي عـزت. الإسـلام بين الشـرق والغرب، الطبعـة الأولـى، مؤسسـة بافاريـا، ألمانيـا، مجلـة النـور، الكويت، ترجمة: محمد يوسف عدس، ١٩٩٤م.
- خالـد، خالـد محمـد. رجـال حـول الرسـول، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٨م.
- خرما، د. نايف. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، ١٩٧٨م.
- الخوئي، السيد أبو القاسم. معجم رجال الحديث، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ.
- الروحاني، السيد محمد. منهاج الصالحين، الطبعة الثانية، دار الزهراء، بيروت، ١٩٩٢م.
- الـرّي شـهري، الشـيخ محمـد، ميـزان الحكمـة، الطبعـة

الأولى، مؤسسة الإعلام الإسلامي، طهران ١٤٠٥هـ.

- الزحيلي، د. وهبة. الفقه الإسلامي وأدلته، الطبعة الثالثة، دار الفكر ـ دمشق ١٩٨٩م.
- السبحاني، الشيخ جعفر. سيرة سيد المراسلين، دار البيان العربي ـ بيروت ١٩٩٢م.
- السماك، محمد. هل الإسلام هو الهدف؟، دراسة في مجلة الوعي الإسلامي ـ الكويت عدد ٣٣٨ شوال ١٤١٤هـ.
- شتراوس، كلود ليفي. مقالات في الأناسة، ترجمة د. حسن قبيسي، الطبعة الأولى، دار التنوير ـ بيروت ١٩٨٣م.
- شمس الدين، الشيخ محمد مهدي. في الاجتماع السياسي الإسلامي، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٩٢م.
- نظام الحكم والإدارة في الإسلام. الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩١م.
- الشيرازي، السيد محمد. السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة السابعة، مؤسسة الفكر الإسلامي ـ بيروت ١٩٩٤م.
- طربوش، سوزانا، مقال منشور في جريدة الحياة، لندن، تاريخ ١٦/ ١١/ ١٩٩٥م.

- العاملي، محمد بن الحسن. وسائل الشيعة، الطبعة الأولى، مؤسسة آل البيت ـ بيروت ١٩٩٣م.
- العسقلاني، ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة، دار الجيل ـ بيروت ١٩٩٢م.
- عمارة، محمد. فريضة الاجتهاد تقنين للتعددية والاختلاف، مقال منشور في جريدة الحياة. تاريخ ٢٧/ ١٠/ ١٤١٧هـ.
- الغزالي، محمد. حقيقة القومية العربية، دار البيان ـ الكويت.
- فقه السيرة. الطبعة الثامنة، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٨٨م.
- غينيس، كتاب غينس للأرقام القياسية، الطبعة الأولى، دار طلاس ـ دمشق ١٩٩٣م.
- القبانجي، حسن. شرح رسالة الحقوق، الطبعة الثالثة، دار الأضواء ـ بيروت ١٩٩١م.
- القرشي، باقر شريف. حياة الإمام زين العابدين، الطبعة الأولى، دار الأضواء ـ بيروت ١٩٨٨م.
- الكليني، محمد بن يعقوب. الأصول من الكافي، الطبعة

الثالثة، طهران ١٣٨٨هـ.

- متـز، آدم. الحضارة الإسـلامية في القـرن الرابع الهجري، الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- المجلسـي، محمد باقـر. بحار الأنوار، الطبعـة الثالثة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت١٩٨٣م.
- المدرسـي، السـيد محمد تقي. من هدى القـرآن، الطـبعة الثانية، دار البيان العربي ـ بيروت ١٤٠٧هـ.
- المنتظري، الشيخ حسـين علي. دراسات في ولاية الفقيه، الطبعة الثانية، الدار الإسلامية ـ بيروت ١٩٨٨م.
- الموسوعة العربية العالمية. الطبعة الأولى، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر ـ الرياض ١٩٩٦م.
- الواقـدي، محمد بن عمر. كتاب المغـازي، الطبعة الثالثة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ١٩٨٩م.

المحتويات

تقديم بقلم الدكتور الشيخ محمد عبده يماني ٩

مقدمة ١٥

الفصل الأول: التنوّع ظاهرة كونية واجتماعية ٢٣

مدخل..... ٢٥

التنوع العرقي والقومي ٣١

التنوع اللساني واللغوي ٣٥

التنوع الديني ٤٣

الفصل الثاني: التنوع والاختلاف رؤية إسلامية ٤٩

أولاً: مظهر للقدرة والحكمة الإلهية ٥١

ثانيًا: مشروعية التنوع..... ٥٥

ثالثًا: التنوع للتعارف ٥٩

رابعًا: التنافس الإيجابي ٦١

الفصل الثالث: التعايش.. منهج وتطبيق ٦٩
مدخل..... ٧١
مواطنون وأديان مختلفة ٧٧
أمة واحدة وقوميات متعددة ٨٧
أصول ثابتة وتنوع في المذاهب..... ١٠٣
خاتمة ١١٥
الانتقال من زمن التعصّب إلى زمن التعايش... مسؤولية من؟. ١١٥
التعايش هو الخيار ١١٩
مسؤولية من؟ ١٢٣
ثبت المصادر والمراجع..... ١٢٥

عنوان المؤلف

حسن موسى الصفار

ص. ب. ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١

ت: ٨٥٥٥٢١٠ (١٣)

فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ (١٣)

المملكة العربية السعودية